القلاع فى الحروب الصليبية

دكتور عبد الرحمن زكى

مقدمة

تناثرت الحصون والقلاع فى الشام بشكل يدعو إلى الدهشة ، منذ أيام الحروب الصليبية وما قبلها ، بين جزيرة « الجرية » [1] فى شمال خليج العقبة (بين مرفأى طابة والعقبة) وسلسلة جبال أمانوس فى شمال سورية . ومع أن بعض تلك الحصون قد شيد على بقايا قلاع الرومان والبيزنطيين والعرب قبل الغزو الصليبى بمئات السنين ، فإن ما بنى منها فى أثناء الحروب الطويلة فى جبهتى المسلمين والفرنج زاد على ما عرفته تلك البقاع من قبل ، سواء فى ضخامة العدد أو من ناحية الطراز المعمارى .

شيد المسلمون والصليبيون عشرات القلاع ، فهم لم يتركوا مضيقاً أو سفح جبل يشرف على واد أو نهير دون أن يبنوا قلعة ، تشرف على هذا أو ذاك . ولم يتركوا مدينة دون أن يشيدوا فى خارجها أو على الجبل الذى يشرف عليها حصناً منيعاً . لقد شيدوا كثيراً كما فعل الرومان من قبل فأحاطوا المدن بالأسوار والأبراج المنيعة ، وكثرت المعارك التى نشبت حولها أو فى داخلها ، وكم من المرات تبودلت بين الخصمين . وما تلك الحصون إلا شهود حق على النضال المرير الذى ساد أرض العروبة أجيالا طويلة .

بالقرب من منابع الأنهار : الأردن والليتانى والأورنت ، قاومت القلاع مهاجميها أو من حاولوا الاقتراب منها . كم من الأبراج الكبيرة أو الصغيرة التى شيدت فى السهول لأغراض المراقبة والحراسة ! كم من الكهوف التى نقرت فى صخور الجبال قاومت بعنف كل من حدثته نفسه بالإستيلاء عليها ! كما حدث فى حبيس جلدق [2] وتيرون النها [3] . لقد أفاد المهاجم والمدافع من طبيعة البلاد وتضاريسها ،

(١) هى الجزيرة المعروفة فى كتابات مؤرخى الحروب الصليبية باسم Ile de Graye (أو جزيرة فرعون) وتقع فى شمال خليج العقبه وتحتوى اليوم على أطلال حصن قديم .

(٢) تكتب أحياناً حبيس جلدق وهى القلعة الصليبية التى تعرف باسم بلفوار Belvoir أو شقيف أرنول وتقع بالقرب من بانياس .

(٣) يقع حصن تيرون إلى شمالى قلعه الشقيف على بعد بضعة أميال ، وتعرف اليوم بقلعة نيحا .

ولم يترك الصليبيون موطئاً قدم على الساحل الفينيقى القديم دون أن يختاروا بقعة تصلح لإقامة حصن أو برج للمراقبة والمقاومة . . حتى الجزر الصغيرة شيدوا عليها الحصون كما فعلوا فى إنفه (Infeh) جنوبى طرابلس على الشاطىء . وقد عاونتهم طبيعة الأرض على تنفيذ ما أرادوه .

كانت حماسة الصليبيين الدينية وآمالهم الطامحة فى امتلاك البلاد المقدسة ، الحافز الأول لهم فى بناء عدد يذكر من القلاع . . تلك التى مازالت إلى اليوم محطاً لدراسة رجال الآثار ، وكان أكثرها نماذج رائعة لأساليب العمارة الحربية التى اتسم بها ذلك العصر ، أى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

اتخذت بعض تلك القلاع ، طراز البناء الشرقية . . . شيد بعضها فى عصور الرومان ، وبعضها فى أيام البيزنطيين أو العرب ، وبعضها من طراز الغرب ، ولا سيما الطراز الفرنسى .

لقد غصت سورية وفلسطين وشرق نهر الأردن ، فى الصحراء الجرداء بعشرات القلاع ، التى اتسمت كلها بروح الإبتكار والإنسجام مع شكل أرض البلاد . ولقد استطاع المحاربون أن يؤلفوا من الحجارة تاريخاً للعمارة الحربية فى القرون الوسطى ، وتاريخاً حربياً أيضاً ! فهناك على ربوة تطل على عيون أدونيس ، شيدوا حصن المنيطرة (Le Moinestre) [1] على إرتفاع ستة آلاف قدم . ولذلك يعلو قمتها الثلج معظم أشهر السنة . تنهض فى جلال لتراقب ممراً فى وادى البقاع . وهى فى موقع عزيز المنال يصعب اقتحام جدرها .

وهناك فى طرطوسة على الساحل شيد الصليبيون فى داخل قلعتها كاتدرائية فى الأسلوب البرجندى . وإلى وراء اللاذقية نحو الداخل فى بقعة وعرة جداً ، عند قلعة صهيون نقروا ١٧٠٫٠٠٠ من أطنان الحجر الأصم ، ليزيدوا مناعة القلعة التى أقاموها على قمة الجبل . كما أنهم قد أنشأوا فى قلعة المرقب مخازن فسيحة تسع عتاد ألف رجل يقاسون ظروف الحصار العنيف الذى امتد حوالى خمس سنوات .

---

(١) أعاد الصليبيون بناءها بالقرب من أفقا وقد شيدت لحراسة المعبر الجبلى الذى يربط بين جبيل وبعلبك ، كانت حصناً عربياً غير أن طغتجين تنازل عنه للفرنجة عام ١١٠٩ .

إنك إذا قمت بجولة لزيارة تلك الحصون التاريخية من شمال سورية إلى أقصى النقب جنوباً ، ومن الشرق عند الفرات إلى ساحل البحر الأبيض لأدركت فى الحال ذلك الدور الهام الذى قامت به تلك القلاع ، فى تلك البقعة بأسرها على مدى التاريخ والتى نشبت على أرضها أعنف المعارك بين الشرق والغرب .

لماذا شيدت الحصون ؟

ذلك العدد الكبير من القلاع الذى مازال ناهضاً إلى اليوم فى بلاد العروبة يجعلنا نتساءل : لماذا شيد البيزنطيون والعرب والصليبيون هذا العدد الكبير من تلك الحصون ؟ أليس عملهم هذا مبالغة وإسرافاً فى خطة إقامة الحصون وحشد الرجال فيها .

ربما كان من محض الصدف أن جاءت الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٧ م) إلى سورية فى الوقت الذى بدأ فيه بناء الحصون يزهر فى أوروبا ، ذلك العصر الذى أطلق عليه عصر القلاع[١] . صادف هذا عصر الإقطاع الذى اتسم ببناء الحصون ، فكان لكل إقطاعى قلعته يحمى نفسه فيها ومعه أتباعه وعتاده .

ولم تكن الحرب الصليبية إلا صورة متقدمة للاقطاع الأوربى فى الشرق الوسيط . وقد يمكن إيضاح ذلك الموقف فى صورة بينة ، إذا أدركنا وضع المملكة اللاتينية فى الشرق .

عبرت جيوش الحملة الصليبية الأولى جبال طوروس متجهة إلى سورية فى عام ١٠٩٧ م ، وغادرت آخر العملات الأرض المقدسة فى أغسطس عام ١٢٩١ م أى بعد سقوط عكا بنحو ثلاثة أشهر[٢] . وكانت المملكة اللاتينية التى عمل الصليبيون كل مافى وسعهم للحفاظ عليها بنجاح متفاوت قرابة مائتى عام ذات شكل شاذ . فقد كان طبيعة موقع دولتهم مكشوفاً تجعلهم معرضين للهجوم عليها . وكانت أراضيهم الممتدة من الجنوب إلى الشمال تضم مملكة بيت المقدس ، وإمارة طرابلس وإمارة

---

(١) شيد برج لندن فى إنجلترا فى عام ١٠٨٧ م ، وأضيفت إليه مبان كثيرة وهو من أهم معالم لندن حتى اليوم .

(٢) قاومت جزيرة أرواد الحصينة التى تقع أمام طرطوسة إلى عام ١٣٠٣ م .

أنطاكية وكونتية الرها التى استقرت فى حدود خمسين سنة يبلغ امتدادها من أربعمائة إلى خمسمائة من الأميال تقريباً . وإذا استثنينا البقعة الشمالية منها لوجدناها أرضاً ضيقة خطيرة يتراوح عرضها بين الخمسين والسبعين من الأميال ، فقد كان امتداده إمارة طرابلس عرضاً مثلا لا يتجاوز ٢٥ ميلا فقط ، وعلى الجانب الصحراوى والطويل لتلك الدولة الساحلية بقيت المدينتان الإسلاميتان والقويتان ، حلب ودمشق تناهضان تلك الدولة الدخيلة ، ولم يستطع الصليبيون مطلقاً الاستيلاء عليهما ، فكانتا طوال مدة الغزو الصليبي بمثابة سيف مصلت عليها باستمرار كشوكة فى جانبها . بل وأكثر من ذلك كانا قاعدتين هامتين ، كان المسلمون يوجهون منها هجماتهم العنيفة المتكررة كلما رغبوا وكما سمحت ظروفهم الحربية .

ولاشك أن الموقف الحربى العام كان يتغير تماماً لو أن الصليبيين — بدلا من اندفاعهم فى اتجاه الساحل وإلى الجنوب نحو بيت المقدس والاستيلاء عليه — كانوا اتجهوا نحو الشرق واستولوا على حلب ، ثم دمشق مفتاح سورية فى ذلك الحين . ولكن ضاعت الفرصة منهم ، وكان من المحقق فى النهاية أن يخسر الفرنج البلاد المقدسة كلها . فمن المحتمل إذا كانوا استولوا على حلب ودمشق لاطمأن الصليبيون إلى بقاء دولتهم . فان الصحراء تكون حداً منيعاً يفصل دولتهم عن هجمات المسلمين من الشرق . بيد أن ذلك لم يكن شيئاً يسيراً . . فان هناك مايقرب من ثلاثمائة ميل فى الصحراء القاحلة التى حرمتها الطبيعة من الماء ، لايستطيع جيش فى العصر الوسيط أن يقوم فيها بعمليات القتال بنجاح إلا إذا أنجز خطته بسرعة .

وفضلا عن ذلك كان وجود الصليبيين يهدف إلى تجزئة الدول الإسلامية ، وفصل بعضها عن بعض ، لكى لاتستطيع التعاون فى إطار من الوحدة . . لذلك لم تتعاون القاهرة ، أو توحد خطتها مع بغداد فى سبيل القضاء على دولة الفرنج ، إذ ليست هناك طرق مواصلات جديدة وقصيرة تيسر لهما ذلك التعاون ، فضلا عن الاختلاف المذهبى فى البلدين حينذاك .

وأدرك الصليبيون خطأ خطتهم ، ولكن جاء ذلك متأخراً جداً وضاعت عبثاً جهودهم حينما فشلوا مراراً فى الاستيلاء على دمشق . وعلى ذلك كان يواجه الصليبيين باستمرار عدو قوى بجنوده السريعة الحركة ، عدو يسدد ضرباته فى أى وقت

شاء ضد الجانب المهدد من ناحية تلك المعاقل الحصينة ، ولذلك كان من الضرورى أن يلجأ الصليبيون إلى سياسة بناء تلك السلسلة المنظمة من الحصون المنيعة .

وكان ثمة سبب حيوى آخر اضطر الصليبيون من أجله إلى بناء الحصون والقلاع ، وهو حاجتهم الملحة إلى المزيد من المحاربين . وقد فطنوا إلى تلك الحاجة عند ما أرادوا تعديل خطتهم للاستيلاء على خط حلب — دمشق والاندفاع إلى قلب البلاد الإسلامية . والمعروف أن الجيش الصليبى الذى خرج من نيقية فى عام ١٠٩٧ كان عرمرماً إذا نظرنا إليه بمقياس الجيوش المعاصرة إذ ذاك . ولكن معركة « دوريليوم »(١) وقسوة الطبيعة فى الأناضول أثناء الصيف كبدت الصليبيين خسائر كبيرة ، فنقص تعداد قواتهم . وعلاوة على ذلك فإن قواتهم التى حاصرت أنطاكية قدرت بحوالى الخمسين ألفاً ، يضاف إلى هذا أنه فى الوقت الذى كادت فيه الحملة تحقق أهدافها بدأ قادتها الواحد بعد الآخر ينسلخ عن الحملة برجاله ، وكان كل منهم يهدف إلى إنشاء إقطاعيات جديدة فى الدولة التى كسبوها . فمثلا استقر بلدوين (فلاندرز) فى الشمال الشرقى إلى الرها . وفضل بوهيموند ورجاله من أهل جزيرة صقلية البقاء فى منطقة أنطاكية ، فلم يصل من القوات الصليبية جميعها إلى بيت المقدس (عام ١٠٩٩ م) سوى ١٥٠٠ فارس وقرابة ١٥٠٠٠ مشاة ، ثم أنه بعد سقوط القدس تحقق الهدف الأول من الحملة الصليبية عاد معظم الفرنج وأتباعهم إلى أوروبا ، بينما بقى « جودفرى دى بيون » لإدارة مملكة بيت المقدس ومعه ثلاثمائة من الفرسان. وليس يخاف أنه قد يستطيع عدد من الفرسان القلائل على كسب المعارك لكنهم لا يستطيعون بعد ذلك الحفاظ على دولتهم . ولذلك كانت حاجة الصليبيين إلى الإمداد بالرجال ملحة باستمرار فى أوروبا . ولم يكن هذا الإمداد دائماً كافياً لأنه كان صغير العدد ومحدوداً .

صحيح أن الحملة الصليبية الأولى كانت ضخمة العدد ، ولربما كان فى استطاعتها أن تغير مجرى تاريخ الدولة اللاتينية ، لولا ما صادفها من المحن فى آسيا الصغرى فى عام ١١٠١ ، ثم جاءت فى أعقابها الحملة الصليبية الثانية — التى قدر عدد رجالها

(١) نشبت هذه المعركة بالقرب من المدينة المعروفة بهذا الاسم بين السلاجقة والصليبيين وذلك فى عام ١٠٩٧ وهزم فيها السلاجقة .

بحوالى ١٥،٠٠٠ من المحاربين . وفى ذات الوقت اتسمت رقعة البلاد المحتلة ، وتناقص عدد رجال الحاميات « نسبياً » ... ولذلك أمام هذا النقص الشديد فى الرجال عالج الصليبيون الموقف الحربى بالالتجاء إلى بناء الدفاعات الحصينة للاستعاضة بها عن جنود الحاميات . ولا يخفى أن الجنب الأيسر للصليبيين كان معرضاً دائماً لهجمات المسلمين المفاجئة .

لذلك لم يكن هناك سوى علاج واحد لملافاة المتاعب .. ألا وهو مضاعفة الجهود لبناء القلاع والحصون كما ذكرنا .

ولكى يحتفظ الصليبيون بمواطىء أقدامهم على شاطىء لبنان ، كان عليهم أن يحتفظوا بسيادتهم على البحر لكى يبقوا على الصلات التى تربطهم بمواطنيهم فى الغرب ، ولكى يحظوا بعطفهم فيواصلون إمدادهم بالرجال . فلقد أحس الصليبيون أنهم يستطيعون الحفاظ بممتلكاتهم إذا استمر سيل المساعدات بالعتاد والرجال يأتيهم من أوروبا ، وإذا ظل أعداؤهم متفرقى الكلمة لا يوحدهم زعيم قوى . فكان عليهم إقامة التحصينات الساحلية . لكى يؤمنوا العمليات البحرية . ولذا فإنهم أقاموا عند مداخل الموانىء البحرية فى عكة وصور وصيداً ، وجبيل ومدن بحرية أخرى أبراجاً عند الحاجز الذى يقاوم الموج ، أو على جزر صغيرة بالقرب من مداخل هذه الموانىء . فشيدوا سلسلة من الأبراج التى كانوا يستخدمونها للمراقبة على طول الشاطىء اللبنانى لكى يؤمنوا الاتصال بينها . وقد بقى من هذه الأبراج إلى يومنا هذا تسعة أبرزها برج جبيل القائم على هضبة جنوبى شرق البلدة . وجميع هذه الأبراج تقوم على مواقع أبراج أو قلاع قديمة . ومواد البناء التى بنيت بها كانت أنقاض تلك الأبراج . وكذلك شيد الصليبيون قلاعاً تحيط بالموانىء من جهة البر .

أما فى طرابلس وصور وعسقلان حيث كانت المقاومة عنيفة شديدة وطويلة الأمد، فإن الصليبيون بدأوا ببناء قلاع كهذه فى زمن مبكر . وكانت هذه القلاع التى بنوها من العوامل التى عجلت فى إخضاع المدن والاستيلاء عليها . وبقايا قلاع الصليبيين فى جبيل هى أول ما يسترعى انتباه السائح فى تلك المدينة[1] وجميع هذه القلاع

---

(١) Max Van Berchem and Edmond Fatio : Voyage en Syrie, vol. 1, Paris, 1914, pp. 108-10.

والحصون الصليبية فى لبنان يعود زمن بنائها إلى القرن الثانى عشر ، وبعضها إلى القرن الثالث عشر[١] .

أما قلعة البحر فى صيدا ، فإنها شيدت على جزيرة صغيرة عام ١٢٢٧/٢٨ م ، وكان يربطها بالمدينة جسر طوله ٨٥ ياردة لا يزال قسم منه قائماً إلى يومنا .

ولما أخذ الملك لويس التاسع يرمم حصونها وقلاعها استعمل مواد البناء ذاتها التى كان الرومان والفينيقيون قد استعملوها فى بناء تحصينات المدينة . وفى الواقع أن أكثر الحصون والقلاع اللبنانية التى أقامها الصليبيون لم تكن سوى إصلاح أو إعادة بناء حصون وقلاع أقامها ، إما البيزنطيون أو الرومان أو ربما الفينيقيون أنفسهم . وهذه القلاع ذاتها رممها المماليك وأعادوا بناءها فى عصر تال .

ذلك أن مواقعها الإستراتيجية الممتازة يجب أن تكون قد استرعت انتباه العسكريين قبل وصول الصليبيين بأزمنة كثيرة . فإن الإدريسى الرحالة والجغرافى المغربى (ت ١١٦٦) لما زار هذه البلاد قبل الفترة التى نحن بصددها ذكر ثلاث قلاع بين صيدا وبيروت وستة عشرة قلعة بين بيروت واللاذقية[٢] .

مراحل بناء القلاع الصليبية

تجلى أمام الفرنج الذين استقروا فى البلاد عقب سقوط القدس حقيقة واضحة هامة . فإنه بالرغم عن استطاعتهم إنشاء مملكة لاتينية ، كان لزاماً عليهم أن يحافظوا عليها . ومن ثم بدأت سياسة الإنشاء والبناء بنشاط على أيام حكم الملك بلدوين الأول (١١٠٠ — ١١١٧) ، تلك السياسة التى استمرت نحو مائتى سنة .

المرحلة الأولى :

كان حصن صافيتا — الحصن الأبيض[٣] أول المعاقل التى شيدها الصليبيون

(١) فليب حتى : لبنان فى التاريخ ص ٣٥٦ — ٣٥٨ .

(٢) الإدريسى : طبعة جلد ميستر ، ص ١٦ — ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ .

(٣) Safet-Chastel Blanc

(١١٠٢ م .) ، ولذلك لأجل السيطرة على مخاضة نهر الأردن فى أقصى الشمال من سورية[١] ثم شيدوا قلعة تورون (Toron) عام ١١٠٧م . التى تشرف على الطريق الموصلة بين صور على الساحل ودمشق . ثم قلعة الشقيف[٢] أقوى الحصون السبعة التى شيدت لحراسة حركة الحج بين يافا وبيت القدس . وقلعة الحبيس جلدق ذلك المعقل الـكهف لمراقبة نهر اليرموك . وقلعة الشوبك[٣] التى شيدت حول عام ١١١٥ جنوب البحر الميت لتهديد المواصلات الصحراوية بين مصر ودمشق . وقلعة سكانا ليون (١١١٦ م) جنوب صور على الساحل. وأخيراً قلعة الجريه[٤] التى تشرف على شمال خليج العقبة فى البحر الأحمر .

وفى أوائل القرن الثانى عشر احتل الصليبيون قلعة صهيون — البيزنطية الأصل — فى جبل العلويين ، وكانت تستر المداخل الجنوبية الشرقية المؤدية إلى أنطاكية وجعلوا منها قلعة منيعة لما أضافوه إليها من الأبراج والأسوار والخنادق .

ولقد كانت قلاع الصليبيين فى هذا الطور (أوائل القرن الثانى عشر) صغيرة البناء كقلعة بلفور[٥] .

كان أهم ما يميز طابع القلاع فى تلك المرحلة ، استخدام الحصن النورمانى المربع ، وبنـاء سور بسيط تدعمه الأبراج المربعة الموزعة على مسافات طويلة نسبياً وذات نتوءات واضحة . وفى هذه المرحلة أيضاً يمـكن القول بأن الصليبيين استفادوا بما وجدوه فى البلاد من القلاع البيزنطية[٦] علاوة على ما نقلوه معهم من الغرب من

---

(١) يوجد قول آخر بأن أول قلعة يمكن تأريخها هى قلعة الـكونت ريمون التى أقاموها على جبل الحاج عام ١١٠٤م ، لـكى تكون مقراً لرئاسة جيشه ، وذلك أثناء انهماكه فى حصار طرابلس ، ومن المحتمل أن تكون قلاع أمراء الجليل فى طبرية وتورون قد شيدت فى نفس العصر .

(٢) Chastel Arnoul

(٣) Montreal

(٤) Ile de Graye

(٥) Belvoir

(٦) كانت الأسوار وأبراج السور من أهم ما تميزت به القلاع البيزنطية والتى اقتبسها الفرنج فى حصونهم .

أساليب البناء الحربية . وكما رأينا فقد واكب وصول الصليبيين إلى فلسطين العصر الذى رأى فيه العرب الأبراج الأولى (Keeps) ، ولذلك فقد عرف الفرنج الاستفادة باستخدام الحصن النورمانى المربع إلى أبعد حد ، وليس هناك أدنى شك فى أن الصليبيين تأثروا بتقليد حصون البيزنطيين الذين كانوا أحياناً يشيدون فى قلاعهم (كما كان الحال فى نيقية ودارا) برجاً واحداً يمتاز بضخامته ومنعته عن الأبراج الأخرى . . وقد عاين الفرنج عدداً كافياً من القلاع فى بلادهم .

وتلك الأبراج القوية التى بدأ الصليبيون يشيدونها فى صافيتا[1] وكرك مؤاب وصهيون وجبله وعكار وفى أماكن أخرى ، كانت تتألف غالباً من طابقين وشرفة (terrace) تعتبر من المتانة التى لم يسبقها مثيل فى العمارة العسكرية إلى القرن السابع عشر . فقد كانوا يشيدون تلك الحصون فى بادىء الأمر فى أسهل مكان دفاعى فى القلعة ، ولكنهم بعد التجربة وجدوا أن خير مكان يشيدن فيه هذا البرج هو المكان الذى يتطلب الدفاع فيه أقوى أعمال التحصين . وبناء على هذا الاعتبار وضعت أبراج مربعة منيعة فى أقوى أعمال الدفاع فى المملكة اللاتينية — وهى حصون صهيون (Saone) والصبيبة والمبانى القوية التى شيدت فيما بعد فى الكرك والمرقب والبرجان الكبيران فى قلعة الحاج فى أنسب الأماكن فى القلاع — أى أشد المناطق خطراً فى القلعة .

والبرج المربع يعتبر أهم السمات البارزة فى الصليبية الأولى ، وبالرغم عما يمتاز به من المتانة فله مساوىء خطيرة . وقد وضحت تلك العيوب فى حروب الحصار المتعاقبة فى الأرض المقدسة ، كان فى أول الأمر سلاحاً إيجابياً ، ولم يكن مبناه يسمح إلا لحامية محدودة العدد . ولم يكن باب البرج الوحيد (لأجل أسباب الأمن والوقاية) يسمح للحامية بالانسحاب عندما تضطر الأحوال . ولقد قيل إن البرج يستطيع الدفاع عنه جندى واحد . وقد أشار ذلك لورنس[2] فقال إن إثنين فقط يستطيعان محاصرة البرج بنجاح . وذلك إذا وقف جندى واحد عند كل ناحية من ناحيتى الباب لمنع إنطلاق الجنود من الداخل . كما أن هناك مساوىء فنية أخرى تلازم كلا من البرج

---

(١) Chastel Blanc

(٢) المغامر البريطانى الذى اشتهر بأعماله فى شبه الجزيرة العربية خلال الحرب العالمية الأولى.

المربع وبرج السور المربع فهما معرضان من زواياها (أركانها) للغم . فضلا عن أن شكلهما لا يسمحان لوقايتهما التامة بواسطة النيران الحاكمة .

وقد دعا الضعف المتوارث للحصن النورمانى والبرج المربع فى السور ، فى أواخر القرن الثانى عشر إلى التخلى جزئياً عن الشكل المتبع وإلى إحداث تغييرات هامة فى عمارة القلاع الصليبية ستتضح جلية فى المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية :

وفى خلال حكم الملك بلدوين الثانى (١١١٨م — ١١٣١م) تم الإستيلاء على بانياس وتحصين قلعة الصليبية فوق جبل الشيخ (Hermon) الذى تكسيه الثلوج فى الشتاء ، وذلك لغلق الطريق بين دمشق وأعالى نهر الأردن . ثم نشطت حركة البناء والتعمير بصورة واضحة على أيام فولك أوف أنجو (١١٣١ — ١١٤٤م) ففيما بين ١١٣٧و١١٤٢ شيدت حلقة قوية من القلاع فى الجنوب الغربى من عسقلان تضم قلعة الحارس الأبيض [١] (تل الصفى) وابلين [٢] وبيت جبلين . والمعروف أن عسقلان هذه كانت آخر المرافىء التى بقيت فى قبضة المسلمين . وكان غرض « فولك » من تشييد تلك الحصون قفل الطريق من مصر إلى فلسطين .

وفى عام ١١٣٩ بدأ الفرنج يشيدون قلعة بوفورت [٣] (شقيف أرنول) المنيعة على أحد الجبال المشرفة على نهر الليتانى وذلك ليتحكموا على أحد مخانقه الضيقة ، وبعد أربع سنوات شيد الصليبيون كرك مؤاب فيما بين ١١٤٠ — ١١٤٣ شرق البحر الميت وهى تمتاز بموقعها العسكرى وتعد نموذجاً طيباً فى أسلوب التحصين ، وقد شيدها باين النابلسى رئيس سقاة الملك فولك . وفى تلك السنين تسلم فرسان طائفة الإسبتارية حصن الفرسان (الأكراد) من الملك [٤] .

---

(١) Blanche Garde

(٢) شيد رجال الاسبتارية قلعة ابلين (يبنا) عام ١١٤١م .

(٣) تبعد بوفورت (بلفورت) نحو ٢٤ ميلا من بيروت ، انتزعها السلطان الظاهر بيبرس من الصليبيين فى ١٥ أبريل ١٢٦٨ (Beufort) .

(Crak des Chevaliers

وينسب إلى قلاع هذه المرحلة قلعة بلفوار[١] وتعرف باسم كوكب الهواء ، شيدها فولك عام ١١٤٠ فى السنة التى شيدت فيه قلعة صفد فى الجليل الملوى ، وقد بنيت على الأسلوب البيزنطى ، ويحيط بها سور خارجى يكاد يكون مربع الشكل تقريباً ، وتدعمه الأبراج ويقوم فى وسطها حصن عال كان يؤلف فى الواقع قلب الدفاع ، وقد جمع أسلوب البناء بين المتانة والمنعة .

ويعتبر انتقال واجب الدفاع عن حصن الأكراد (الفرسان) إلى طائفة الاسبتارية حدثاً هاماً وذلك من ناحية الترتيبات الدفاعية فى مملكة اللاتين وذلك فى حوالى منتصف القرن الثانى عشر . ذلك لأن تصميم هندسة الحصون وبناءها كان قد بلغ مستوى رفيعاً من ناحية الضخامة ، بحيث لا يستطيع السيد الإقطاعى مهما كان غنياً أن يتكبد الإنفاق على البناء المطلوب . ولذلك انتقلت تدريجياً شئون الدفاع عن الأرض المقدسة إلى الطوائف العسكرية القادرة . ومن ثم وقع على عاتق الاسبتارية بناء حصن إبلين فى عام ١١٤١ م ، ثم عسقلان بعد الاستيلاء عليها عام ١١٥٣ م . وقلعة بلفوار التى تحكم أعالى نهر الأردن قبل عام ١١٦٨ ، وقلعة عكار فى لبنان الشمالى فى عام ١١٧٠ م ، وقلعة المرقب التى بين طرابلس واللاذقية فى عام ١١٨٦ م .

ولم يكن بناء قلعة المرقب الاسبتارية قد تم عندما انتهت معركة حطين فى عام ١١٨٧ ، ومن ثم حشدت جميع القوات التى أمكن الحصول عليها لمقابلة جيوش صلاح الدين عند طبرية ، وكانت نتيجة تلك الأعمال الحربية المتعاقبة أن نقص عدد رجال الحاميات فى القلاع .

وهكذا نرى أنه كان من عواقب نقص عدد الرجال فى القلاع ، أن ازداد عبء الدفاع أمام هجمات المقاتلين المسلمين ، ولدينا الكثير من أحداث الحصار الرائعة فى قلاع الكرك بمؤاب والشوبك (مونتريال) وبوفور وصافيتا ، فقد استطاع رجالها مقاومة الحصار أكثر من عام ضد قوات تفوقهم عدداً وعدة .

ونلاحظ أن أكثر القلاع التى استولى عليها صلاح الدين ومنها كرك مؤاب ،

---

(١) Belvoir

لم يستردها الصليبيون مرة ثانية . ولـكن عندما جاءت الحملة الصليبية الثالثة بامداد من الرجال (١١٨٩) عاد الأمل إلى اللاتين ، ونشطت حركة بناء القلاع ثانية .

أنه قبل حوالى ١١٧٠ م لم يشيد الفرنج أية أبراج مستديرة كبيرة . وبعد معركة حطين (١١٨٧) وباستثناء قليل ، كانت أهم حصونهم الـكبرى تعتمد على الأبراج المستديرة ذات النتوء أو البروز الـكبير — تلك الأبراج المستديرة التى تسمح بكمية كبيرة من النيران الجانبية . وفى الوقت الذى حافظ فيه الصليبيون على طراز البرج القديم بدأوا يتخذون الطراز المعارى المستدير ، ومن ثم أخذ هذا يتطور إلى حصن متين يضم عدة أبراج متصلة ببعضها ، وسمح هذا الشكل ـ التطور الجديد ـ إلى زيادة سرعة حركة الجنود ومضاعفة نشاط هجومهم ، وقد أدى هذا التطور فى الأسلوب البنائى إلى ظهور الحصن ذى الأسوار المتـكررة المشتركة المركز وهو المعروف concentric fortification .

وأصل هذا الأسلوب فى القلاع الصليبية التى لها نطاق مزدوج من الأسوار غير محقق ، وصحيح أن الإمبراطورية الشرقية قد استخدمت هذا النوع من الاستحكامات ذات الحصون المتداخلة فى بزنطيوم وغيرها ، كما استخدمها الخليفة المنصور عند بناء الأسوار المستديرة فى تشييد بغداد فى القرن الثامن ، وفى انجلترا على أيام الرومان والسكسون عرفت بعض الاستحكامات الترابية من هـــذا النوع (concentric earthworks) ، وما زالت مخلفات هذه الاستحكامات تشاهد إلى اليوم فوق الـكثبان الرملية الإنجليزية .

ومن الممكن أيضاً أن تـكون القلعة ذات الحصون المتداخلة قد تطورت من البرج الذى على شكل المحار (Shell-keep) ، وهو عبارة عن قلعة وحصن (Keep-fortress) شيد وسط فناء ، وقد أثبت هذا التخطيط فى أوروبا أنه أحسن ما يستعاض به عن الحصن النورمانى الحدود المهمة ، ومن الحصن الذى على شكل المحار جاء سور الستارة الذى ضم مساحة أكبر عرفت باسم بيلى (Bailey) .

وعلى أية حال فمهما اختلفت الآراء فى منشأ هذا الطراز المعارى : أهو شرقى أو غربى فانه ازدهر على أيام الصليبيين ازدهاراً مدهشاً واضحاً . نراه أمامنا إلى

اليوم ظاهراً جداً فى قلعتى المرقب وحصن الأكراد ، وهو عنوان الفخامة والجمال فى وقت واحد .

وقد واكبت هذه الثورة فى التخطيط عدة تغييرات فى طريقة البناء : منها استخدام الحجارة المنحوتة التى لا يتيسر بسلالم الحصار التغلب عليها لأنها لا تمسك بها ، وتطورت طريقة عمل المزاغل (فتحات السهام) وصارت تتجه منحنية إلى الأسفل ، وبذلك تيسر الرمى إلى أسفل القلعة . ولم يقتصر عمل تلك الفتحات على الشرفة العليا أو الطوابق المرتفعة فى الحصن ، بل عممت أيضاً فى الطوابق المنخفضة إلى مستوى الأرض . وتطور أيضاً عمل الشربيات الحجرية (Machicolation) وذلك ببنائها من الحجارة بدلا من الخشب كما كان الحال فى أوروبا ، وذلك لندرة الأحشاب فى سورية . كما طرأ على مداخل القلاع وأبوابها أساليب خداعة لتضليل المهاجمين ، ولنضرب لذلك مثلا : فالمحاصرون إذا أرادوا اقتحام مدخل حصن الأكراد .. كان عليهم أن يجتازوا ممراً مقبى ويديرون ثلاث مرات وربما قابلهم بعد ذلك باباً شبكياً من الحديد يمنعهم عن اقتحام البوابة الكبرى .. وعليهم بعد ذلك أن يعملوا جادين لاجتياز أربعة أبواب أخرى أقيمت فوقها الشربيات الحجرية . ولأجل تيسير التحرك والعمل لرجال الحامية ، فقد لجأوا إلى استخدام عدد من الأبواب السريه والخفية (Postern gates) . وكانت تلك الأبواب يخفى أمرها فى بعض الأحيان كما كان البيزنطيون فى الغالب يخفون أبواب قلاعهم ، وذلك فى المكان الذى تأخذ فيه ستارة السور فى الانثناء بشكل زاوية قائمة ، وكانوا يختارون مواضعها بحيث أن جماعة الجند المهاجمة عندما تتخذ طريقها نحو الباب السرى تعرض يسرتها أو أجناب دروعها للعدو .

المرحلة الثالثة :

وبعد انكماش مساحه الأراضى الصليبية فى القرن الثالث عشر نتيجة لاستيلاء المسلمين على أراضى الأفرنج ، لم يشيد هؤلاء إلا القليل من القلاع الجديدة باستثناء قلعة مونتفرت[1] أو القرين (١١٢٧ — ١١٢٩ م) والتى شيدت فى موقع جذب

(١) Monsfortis

ومنيع يشغلها مقر رئاسة الفرسان التيتون(١) علاوة على أعمال التحصين الهامة التى شرع فى إقامتها بعد عام ١٢٤٠ م فى صافيتا شمال طبرية ، وفى قلعة بوفورت التى كان الأفرنج قد شيدوها من قبل ، ثم استولى عليها المسلمون واستعادها الصليبيون بعد ذلك . وانتقلت العناية إلى تحصين قلاع الساحل، ذلك لأن المرافىء يستطيع المسلمون مهاجمتها ، ومنها يتمكن الفرنج مراقبة البحر ، ويسر كل هذا للفرنج التمسك بالسهول الضيقة المطلة على البحر ، ولذلك رأينا الملك ريتشارد يعيد تحصين يافا قبل رجوعه إلى وطنه فى عام ١١٩٣ م ، ثم شيدت قلعـة صور حوالى عام ١٢١٠ م ، وشيدت قلعة الحاج هى حصن الداوية المنيع عام ١٢١٨ ، كما بنيت قلعة الجزيرة فى صيدا عام ١٢٢٨ . وقد نشطت على أيام الملك لويس (سنت لوى) حركة تحصين واسعة فى المرافىء على طول امتداد الساحل ، وعلى أية حال فقد استمر البناؤون الفرنج يشيدون ويعمرون حتى الساعة الأخيرة ، ساعة فراقهم سورية .

هكذا رأينا فى عرض عام حصون المملكة اللاتينية تزيد حصناً بعد حصن ، عقب سقوط بيت المقدس فى قبضتهم حتى انتهاء دولتهم وسقوط عكاء فى يدى المسلمين (١٢٩١ م) .

ويمكن تقسيم تلك القلاع حسب الأهمية العسكرية (الوضع الحربى) وربما من الناحية الجغرافية أيضاً إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ — حصون لتأمين طريق الحج المؤدى إلى بيت المقدس من يافا أو عسقلان :

كان الغرض الظاهر من الحملة الصليبية الأولى هو تحرير الأماكن المقدسة من السلاجقة . فلما أحرز هذا الهدف عكف الصليبيون على تأمين حركة الحج من الساحل إلى كنيسة القيامة . ولأجل هذا أنشأوا سبعة معاقل رئيسية بين يافا وهى المحطة الأولى لإنزال رجالهم الذاهبين إلى القدس ، وفى عام ١١١٨ م أناطوا برجال طائفة الداوية واجب حراسة الطريق المذكور . وكان أهم تلك المعاقل شقيف أرنول(٢) . أما المعاقل الأخرى فى هـــذه المجموعة فلم تـكن على شىء كبير من الضخامة .

---

(١) تعرف أيضاً باسم قلعة ستاركنبورج Starkenburg

(٢) Chastel Arnoul أو بلفورت ، ويعرف عند العرب بقلعة الشقيف .

٣ — تحصين المدن الساحلية :

أول المدن الساحلية من الشمال هى أنطاكية . وكانت حصونها البيزنطية منيعة ، ولم يزد عليها الصليبيون شيئاً يذكر . ثم وجه هؤلاء عنايتهم لتحصين معظم المدن الساحلية الممتدة بين عسقلان فى الجنوب إلى ساحل آسيا الصغرى فى الشمال . وقد وجد الصليبيون فى معظم تلك المرافىء والمدن حصوناً بيزنطية وأسواراً عربية كانت أقيمت قبل وصولهم إلى سورية (ماعدا يافا) ، وعلى ذلك كانت أعمال الصليبيين عبارة عن إمتداد أو توسع أو تحسين فحسب . وقد اجتنبوا إقامة القلعة فى قلب المدينة كما كان يفعل العرب ، وهؤلاء أسوة بالرومان . وبدلا عن ذلك كانوا يشيدونها فى ركن من أركان المدينة أو بعيداً عنها مع إشرافها على الأرض المكشوفة ولذلك استقلت القلعة من ناحية تأديتها الواجب الدفاعى عن المدينة . ولا يخفى أنه كان للمدينة أسوارها وأبراجها الخاصة . فإذا سقطت المدينة فى قبضة العدو استطاع رجال القلعة القيام بواجب الدفاع كوحدة مستقلة ، وفى الوقت نفسه تستطيع أن تستمد العون والمدد والنجدة من البلاد المجاورة ، ومن أمثال تلك القلاع :

حصون طرطوسة وجبلة وبيروت وقلعة البحر فى صيداء[١]، وقلعة صور (والتى كان يمكن عزلها بغمر خندقها بمياه البحر) كانت تتمتع باستقلال مماثل ، لأنه عندما تسقط المدينة (أى صور) فى قبضة العدو كانت تستطيع القلعة الإتصال بواسطة البحر .

ولم يبق معظم أعمال تحصين المرافىء التى أقامتها الدولة اللاتينية لأسباب كثيرة . لقد مر عليها الكثير من أحداث القتال ، وكثيراً ماتبادلتها القوات المتحاربة منذ القرن الثالث عشر ، علاوة على ما قامت به معاول الهدم والتخريب ، ولم يبق اليوم من منشئات اللاتين الحربية فى صور أو أسوار يافا (ذات الـ ٢٤ برج) التى هدمها السلطان بيبرس ، أو بيروت التى اشتهرت قلعتها بفسيفسائها وقاعاتها الرخامية . تلك أثارت دهشة ويلبراند فى القرن الثالث عشر[٢]. ولم يبق شىء هام فى قلعة طرابلس ، أما قلعة عكاء فقد ضاع معظم معالم البناء الصليبية .

---

(١) Chateu de mer

(٢) Wilbrand of Oldenburg

أما قلعة البحر فى صيداء فلا تزال تحتفظ بأطلالها الصليبية . كذلك الحال فى برج جبلة ، على عكس ما تبقى فى طرطوسة : وقلعة المبدين ذات البرج المنيع وأسوار دفاعاتها المزدوجة ، وجزء من سور المدينة والكاتدرائية .

وفى نيفين[1] (Nephin) حيث حول اللاتين قطعة جبلية فى البحر إلى جزيرة لم يبق منها سوى أكوام من الحجارة .

٣ — القلاع الاستراتيجية :

والنوع الثالث من الحصون (الاستحكامات) هى القلاع الاستراتيجية الكبيرة التى شيدت لحماية مدينة هامة أو موقع رئيسى ، ومعظم هذا النوع شيده الصليبيون فى داخل سورية . وواجبها الرئيسى وقاية الجنب المهدد بالهجوم لدولتهم . وقد أقيمت هذه القلاع إما عند مخاضة رئيسية أو مضيق ، ولذلك كانت تبقى فى مكان موحش منعزل تسوده العزلة من كل جانب . فإذا بقى هذا النوع إلى اليوم محتفظاً بأهم سماته فذلك راجع إلى طبيعة الموقع . ولم تفقد تلك القلاع أهميتها على مر السنين بل إنها حافظت عليها لان طبيعة الأرض لم تتغير .

وتعتبر تلك القلاع الاستراتيجية الكبرى خير تعبير للعمارة العسكرية الصليبية فى القرون الوسطى ، وقد تمكن رجال الآثار والتاريخ بفضلها أن يدركوا كفاءة ومهارة بنائيها وذوق مهندسيها . ونذكر من تلك القلاع :

حصن الأكراد ، المرقب ، كرك مؤاب ، صهيون ، بوفورت (الشقيف) ، قلعة الحاج أو أثليت ، الصبيبة جنوبى جبل الشيخ . ونضيف إلى تلك إسمى قلعتين من ذات الطراز الكبير ، هما تورون[2] وصافيتا . وقد خربهما المسلمون فى زمن ما .

العوامل الجغرافية واختيار المواقع :

ولا شك أنه كان للعوامل الجغرافية أثر كبير فى اختيار مواقع تلك القلاع الكبيرة .

---

(١) اختفت هذه القلعة اليوم تحت مياه البحر ، وقامت بالقرب منها قرية آنفة ، وهى جنوبى مدينة طرابلس .

(٢) Safita — Toron

وتوزيعها فى سورية ، ونظرة فاحصة للخريطة للبقاع التى تقع بين صيداء وأنطاكية تبين لنا أهمية المواقع التى شيدت فوقها تلك القلاع . فعند جبال لبنان الشاهقة التى تناطح السحاب إلى ارتفاع قد يصل إلى عشرة آلاف قدم ، وجبل العلويين فى شمال لبنان أيضاً (مع أنه أقل ارتفاعا) يتمثل التوحش والوعورة .. اتخذت طائفة الاسماعيلية معاقلهم المنيعة ومنها قلعة القدموس ومصياف ، وقد كان هؤلاء فى وقت ما من حلفاء الصليبيين .

ومن صيداء إلى أنطاكية كان من اللازم بناء القلاع عند الممرات القليلة العدد التى تصل بين داخلية البلاد والساحل . ولقد شيدت قلعة صهيون عند الطرف الشمالى لجبل العلويين والمرقب فى المكان الذى تنحرف فيه سلسلة الجبال عند الساحل مؤلفة أخدوداً ضيقاً بين الجبال والبحر . وحصن الأكراد (الفرسان) ، والقلعة البيضاء وعكار وغيرها . . كل منها فى مكان تتحكم فيه على ثغرة بين الطرف الجنوبى لجبل العلويين أول معاقل لبنان . ولم يكن من اللازم بناء قلعة كبيرة على طول امتداد سلسلة جبال لبنان ذاتها . وأمامنا قلعة بوفور عند نهاية تلك السلسلة الجبلية ، وهى تحرس الممر الذى يخرج منه نهر الليتانى فى طريقه إلى البحر .

وفى فلسطين ، فى الجنوب ، حيث تعتبر الدفاعات الطبيعية إلى حد ما قليلة وغير مؤثرة ، أمكن استعاضة هذا الضعف بتشييد قلاع كثيرة ، وسنذكر بعضها . كان هناك خط دفاعى أولى للدفاع فى الأرض الشبيهة بالصحراء فى شرق نهر الأردن :

الصبيبة فى جنوب جبل الشيخ للتحكم وكشف أى تقدم يرد من جهة دمشق .

وقلعة كرك مؤاب فى شرق البحر الميت وعلى مقربة منه .

والشوبك فى صميم صحراء الأردن وشمال خليج العقبة .

أما خط الدفاع الثانى فكان يقع غرب نهر الأردن ويعتمد على قلعتى تورون وصافيتا ، ويشرف بالتتابع على الطرق المؤدية من أعالى الأردن إلى صيدا أو عكا ، وعلى قلعة بلفوار التى تشرف على المخاضة الهامة جنوب طبرية .

وإلى جنوب وادى نهر الأردن والبحر الميت أنشئت عدة حصون منيعة جيدة : بينما شيدت قلعة الحاج على ساحل البحر حيث ترتطم المياه بأسوارها من ثلاثة أجناب .

الأساليب المعمارية للقلاع الصليبية

تلك القلاع التي مر ذكرها يختلف تخطيطها اختلافاً بيناً ، وهي تلخص أو توجز تاريخ وتطور الحصون من نهاية القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر إلى خاتمة القرن الثالث عشر .

كانت مشكلة بحث الأصول الهندسية والمعمارية لتلك القلاع موضوع دراسة رجال الآثار منذ القرن السابع عشر .. هل استمد الصليبيون أصولها من البيزنطيين أم من العرب أم أنهم جلبوها معهم من الغرب ؟ ، أم أن تلك القلاع كانت هندستها من وحي بنائيهم عندما حلت قوات الصليبيين في الأراضي المقدسة ؟

إن الرأي الغالب هو أن البنائين الصليبيين تلقوا فنونهم في العمارة العسكرية من الشرق ، وأن فن الحصون الأوربي استمد أسوله واستوحاها من التقدم الذي طرأ على القلاع في الشرق منذ البيزنطيين يذكر ف . ا . لورنس[1] أن القلاع الصليبية في سورية صورة من النماذج الأوربية وأنها لم تستمد شيئاً مطلقاً من أساليب القلاع البيزنطية ، وقد اندفع في تأييد هذا الرأي وتسجيل نظريته بشتى الشواهد ، ومنها ما قد يعتبر متفقاً مع الحقائق العلمية أو منساقاً مع العواطف !

والواقع ، أن الحق ربما يوجد بين الرأيين ، فان الصليبيين تعلموا كثيراً من الشرق ، كما جلبوا معهم بعض الأساليب من الغرب وخاصة في السنوات الأخيرة من دولتهم .

إن الحصون في الشرق العربي التي عرفت في القرن الحادي عشر امتدت أصولها وتطورها منذ العصور القديمة ، ولم يعرف عن الصليبيين أنهم استحدثوا جديداً في منشئات الدفاع العسكرية ، مما لم يكن أمره معروفاً عند القدامى . ذلك لأن بعد سقوط رومه انتقلت تقاليد فن الحصون القديمة إلى البيزنطيين ، وتلك القلاع بقيت خير تعبير لما شيده جوستنيان من المباني العسكرية التي يقدر عددها تسعمائة مبنى . وقد اهتدى رجال الآثار على كثير من تلك الأعمال . وفي عام ١٠٩٧ بدأ الصليبيون

---

(١) Lawrence, I.E., Crusader Castles, 2 vols., Golden Cockerel Press, 1936.

سيرهم الطويل عبر آسيا الصغرى ودمروا نيقية ثم أخضعوها لهم ، وفى العام التالى استولوا على أنطاكية . وقد اشتملت المدينتان الحصينتان على خير النماذج المعمارية الحربية التى تأثر بأساليبها البناءون الصليبيون ، فعرفوا كيف يستفيدون منها ، واقتبسوا منها ما يتفق مع مطالبهم .

كانت قلاع الصليبيين مبان منيعة وكأنها وحدات دفاعية مستقلة ، وكانت تزداد قوة باتصال إحداها بالأخرى كحلقات فى سلسلة أو شبكة محكمة من المواصلات مع المعاقل المجاورة .

ومن المحتمل أن الصليبيين تأثروا أثناء وجودهم فى الشرق باستخدام الإشارات والحمام الزاجل كوسيلة من وسائل المواصلات . والمعروف أن العرب قد امتازوا فى إستخدام الحمام الزاجل ، كما مهر البيزنطيون فى استعمال الإشارات . ومع ذلك أدرك الفرنج أين يشيدون قلاعهم وذلك لكى يجعلوا الإتصالات الداخلية بين معاقلهم أمراً ممكناً داخل مساحات شاسعة فى ممتلكاتهم اللاتينية .

كان جنودهم على ذروات قلعة بوفور (الشقيف) (مثلا) يتصلون بالإشارات مع جنود قلعة الصبيبة أى بانياس على سفوح جبل الشيخ . وكذلك مع قلعة تورون إلى الجنوب ، ومع حامية قلعة صيداء على بعد ١١ ميلا على الساحل . وكانت المواصلات فى تورون ، (تبنين) ممكنة مع « شاتونوف » ونهر الأردن . كما أنه كانت هناك شبكة مواصلات شبيهة تصل بين حصن الأكراد وعكا والقلعة الحمراء (قلعة يهمور) وصافيتا (Chastel Blanc) والعريمة وطرطوسة فى شمال ووسط المملكة اللاتينية . وفى أقصى الجنوب فى كرك مؤاب حينما كان يحاصرها صلاح الدين عام ١١٨٣م كانت القلعة تتصل ليلا بوساطة الشارات النارية عبر البحر الميت بقلعة بيت المقدس (برج داود) التى تبعد عنها مسافة تبلغ نحو خمسين ميلا .

وتلك القلاع ومن كان فيها من رجال الحاميات القليلى العدد وهم مسلحون تسليحاً طيباً (١) احتوت على الإسطبلات الكافية وأبراج الحمام والطواحين ومخازن

---

(١) فى معركة حطين (١١٨٧م) فقد حوالى ٢٣٠ من فرسان الطائفة الشجعان ، كما فقد الداوية عدداً كبيراً من رهبانهم فى معركة عكا الختامية .

العتاد فى الأقبية داخل الأرض ، وكان يشرف عليها مسئول من قبل كبار الإقطاعيين الذين أسهموا فى إرسال الحملات الصليبية الأولى إلى الشرق . ولـكن فيما بعد تغير هذا الوضع حينما اتسع نطاق العمليات الحربية واستقرت مملـكة اللاتين فى الشرق ، وآل معظم الأمر فى منتصف القرن الثانى عشر إلى رجال الطوائف الدينية وأهمها طائفة الإسبتارية وطائفة الداوية ، وهما الطائفتان اللتان وقع على عاتقيهما مسئولية المحافظة على القلاع الـكبرى ، ثم آلت إليهم مسئولية الدفاع عن المملـكة اللاتينية بأسرها .

كذلك كان الحال فى قلاع الصليبيين التى كانت على الحدود بين دولتهم والدولة الإسلامية . كان يحافظ عليها رجال تلك الطوائف المتعصبة ، وكان من مهامهم تقرير الضرائب كما كان لهم سفنهم البحرية الخاصة وهيئاتهم الدبلوماسية التى تتـكلم بالنيابة عنهم لدى ملوك أوروبا .

لقد وصل رجال طائفة الاسبتارية إلى الشرق قبل مجىء الصليبيين ، وكانوا مسئولين عن تنظيم حركة الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس وتوفير نظم الراحة لهم ومعالجة المرضى منهم . وفى أوائل القرن الثانى عشر تطورت واجباتهم وضمت الشئون الحربية . أما الداوية فينسبون إلى الهيكل (هيكل القدس) ، ونشأت طائفتهم فى عام ١١١٨م . وفى أعقاب العام المذكور أخذ يتقدم نفوذ الطائفتين بسرعة ونشاط ثم ساعد تطور الأحداث على إدماج الأعمال الحربية ضمن مسئولياتهم ودخل فى اختصاصاتهم إدارة معظم القلاع الهامة ، كما أصبحت لهم نظم خاصة وتقاليد متصلة بأعمالهم الروتينية والعسكرية .

التأثيرات البيزنطية المعمارية

حين نبحث موضوع التأثيرات البيزنطية المعمارية نجد أن حاجيات الصليبيين والبيزنطيين اختلفت إحداهما عن الأخرى . فالبيزنطيون لم يكن ينقصهم الإمداد بالرجال (القوة البشرية) ، ونضيف على هذا أن تـكتيكات وأسلحة الحصار خلال العصور الوسطى وقبل العهد الصليبى لم تـكن تتطلب الأسوار المتينة البناء . وكان أهم ما اعتمدت عليه القلعة البيزنطية هو سور رفيع «نوعا» تحميه عدة أبراج مربعة ذات

بروز ضئيل . وتلك الأبراج موزعة على مسافات معينة ، بين كل منها والآخر ستارة غير سميكة من الحجارة ، الأمر الذى كان من أجله تبنى كوابيل يعتمد عليها ممشى السور ، وفى بعض الأحيان كانت تبنى لها سلسلة من العقود الداخلية .

ومن أهم مميزات الحصون البيزنطية — الخندق الكبير الذى يحيط بالقلعة ، وكان يتقدمه أكمة من التراب تسمى متراساً (استحكام ترابى) . وعلى العموم فقد كانت الحصون البيزنطية تعتمد على عدد الرجال وعلى الأعمال الدفاعية الخارجية (الخندق والمتراس الترابى) ولا تعنى كثيراً بالموقع المنيع أو بمتانة الأسوار أو بترتيب منسق لاستخدام النيران الساترة (١) .

استفاد الصليبيون كثيراً فى سورية من الخصائص والمميزات المعمارية لحصون البيزنطيين واتخذوها مرشداً لهم ، ولا سيما فيما شيدوه منها عندما وصلوا إلى الشرق . وقد استخدم الفرنج الأبراج فى حصونهم على الأسلوب البيزنطى ، وشيدوها فى بادىء الأمر مربعة الشكل ، ولكن بدون النتوء البارز الذى عرفه البيزنطيون . ونشاهد فى قلعتى صهيون والحاج أن أبراج الستارة لم تكن متصلة بممشى السور . وفى قلعة صهيون نلاحظ أن جزءاً من ممشى السور كان يعتمد على الكوابيل الخارجية . وقد استخدم الصليبيون بمهارة الخندق وعنوا به كثيراً ، ويشاهد هذا بوضوح فى قلعة صهيون وكرك مؤاب والصبيبة وبوفورت وقلعة الحاج .

ومن حصون الفرنج التى لم تطبق فيها الأصول المميزة للحصون البيزنطية ، تلك الحلقة من القلاع التى شيدها الملك فولك أوف آنجو بين عامى ١١٣٧ و ١١٤٢ م حول عسقلان وهى : إبلين وبيت جبلين والحارس الأبيض . فقد كانت تلك عبارة عن قلاع مربعة ذات أبراج مربعة فى الأركان وبروزات (نتوءات) مستطيلة ممتدة مع الستارة .

وكان فى قلعة من تلك القلاع برج منيع مستقل فى وسطها (Keep) ، وقد شيد

---

(١) تلك هى ميزات عامة ويمكن الرجوع إلى حصون قبرص البيزنطية وحصون الرصافة وغيرها مما شيده البيزنطيون فى سورية .

على نفس الطراز قلعة كوليات[1] بالقرب من طرابلس وقلعة بافوار (١١٤٠ م) ، وقد بنيت الأخيرة من الحجر المنحوت الأسود ، وهى حصن كبير مربع يحيط به خندق حول ثلاثة من أجناحه ، أما الجانب الرابع فيطل على هوة سحيقة . ويمتد أطول أضلاع القلعة نحو ٣٨٠ قدماً ، والأبراج المشيدة عند الأركان مربعة الشكل ، وهناك برج واحد ذو نتوء كبير مقام فى وسط ثلاثة من ستائر القلعة .

ومن أهم المميزات التى توضح التخطيط الدفاعى هى الأبواب السرية الثلاثة (Posterns) وكذلك المدخل الرئيسى للحصن ، وكان يضم هذا الأخير على الأقل منحنيين يعملان معا شكل زاوية قائمة[2] وكان يصل المرء إلى الباب الثانى بواسطة ممر مقبي ، وتعتبر القلعة الحمراء القريبة من طرطوسة نموذجاً بسيطاً لهذا النوع من البناء ، ونجد هذا المدخل الذى على شكل مرفق يتكرر عدة مرات فى قلعة حلب .

واستمد الصليبيون من النماذج العربية عنصر المشربيات الحجرية (Machicolation) ثم عملوا على تطويره . وهناك عدة أمثلة لهذه الظاهرة المعارية فى عدة مبان بالقرب من أنطاكية ترجع إلى مابين القرنين الرابع والسادس . وقد نشأت هذه الظاهرة فى الشرق قبل ظهورها فى أوربا[3] .

أما عن أسلوب البناء بالحجارة فقد اتبع الصليبيون الطراز الذى اتبع فى سورية على أيام ما قبل البيزنطيين (الفينقيين وغيرهم) . ولا يخفى أن ندرة الخشب فى تلك البلاد أجبرت الصليبيين على إستخدام العقود والقبوات بدلا من استخدام الخشب ، ولذلك كان عدد الطوابق محدداً ، ولم يتجاوز عددها فى القلاع اثنين أو ثلاثة ، ويلاحظ أن الأبراج التى تتوسط القلاع الصليبية (Keeps) كانت أقل ارتفاعاً من مثيلاتها التى شيدت فى الغرب .

---

(١) Coliat .

(٢) هـذا الأسلوب المعارى أخذه الغرب من الشرق وهو جعل المدخل الموصل من باب القلعة إلى داخلها على شكل زاوية قائمـة أو جعله منثنياً لـكى لا يتمكن العدو الذى يصل إلى الباب من أن يرى الفناء الداخلى أو أن يصوب سهامه إلى من فيه .

(٣) K.A.C. Creswell : A Short Account of Early Muslim Architecture, Pelican, 1958, pp. 121-122.

وليس بخاف أن العرب على أيام الصليبيين كانوا قد اتصلوا من قبل ببيزنطية منذ عدة قرون . وقد استفاد الاثنان وتبادلا المعرفة كما أنهما أضافا كثيراً إلى مبادىء فن هندسة الحصون القديمة .

ونحن هنا إذا تذكرنا أن فى معظم عصور النضال الإسلامى الصليبى ، كان العرب يعتمدون على الهجوم وسرعة الحركة ، وكانوا يمتازون فى الوقت ذاته بتفوق عددى كبير على خصومهم ، فانهم لم يعنوا كثيراً فى تلك المدة بأعمال بناء الحصون الدفاعية ، ولأجل ذلك لم يقدر الباحثون تأثيرهم على العمارة اللاتينية حق قدره . وليس هناك أدنى شك أن الصليبيين استفادوا كثيراً من خبرة العرب فى أساليب البناء العسكرية . وكان مما أدخلوه الى أسس جدرانهم ذلك التضخم فى زيادة سمك جدران أسوار قلاعهم .

وفى صيداء وغيرها استخدم المسلمون العمد الرخامية والجرانيتية القديمة كدعامات لتقوية مبانى الحصون ، وهو أسلوب معمارى شاع استعماله عند المسلمين أينما وجدوا تلك العمد القديمة .

وموجز القول أن الصليبيين استفادوا دروساً شتى من البنائين البيزنطيين والعرب وأخذوا تلك الميزات المعمارية التى راقت لهم وأوصلوها إلى مستو رفيع . ثم أدخلوا عناصر جديدة ، وكان من أهمها حسن اختيار الموقع الذى تشيد عليه القلعة من ناحية الدفاع المثالى والعمل على أن ينسجم الموقع مع شكل الأرض وطبيعتها .

كان من نتائج الحروب الصليبية ، أن تطور نوعان رئيسيان من القلاع ، انتقلا فيما بعد من الشرق إلى أوروبا ، وكان لكل منهما ذات التخطيط والغرض فقد اشتملت كل قلعة على خطين للدفاع أو ثلاثة خطوط دفاعية ، الواحد فى خلف الآخر . وقد اختلف كل نوع عن الآخر من ناحية طبيعية الموقع الذى شيدت عليه القلعة . وبمعنى أوضح أن طبيعة الأرض ، هى التى كانت تتحكم فى اختيار نوع التخطيط المنشود . فإذا كانت القلعة معرضة للهجوم من جميع الأجناب ، فان القلعة فى مثل هذه الحالة تتطلب الدفاع المتعادل عن كل جنب من أجناب القلعة ، ومن هنا نشأ ذلك النوع من القلاع الذى يشتمل على عدة خطوط أو ساحات دفاعية

متعاونة تعتمد على بعضها بعضاً داخل القلعة. وقد أطلق على هذا النوع « القلاع المتداخلة الحصون » (concentric) . وكان يحدث غالباً ، حينما تشيد قلعة ما فى أعلى ربوة أو موقع شبيه وينتظر أن يكون الهجوم على القلعة من جانب واحد فقط . حيث لاتتوافر فيها إمكانية الدفاع عن كل الأجناب ، فقد كان من الطبيعى إستخدام الأسلوب الذى يسمح بإقامة ساحات متعاونة داخل القلعة لأجل مواجهة المهاجمين فى الاتجاه الذى ينتظر أن يحصل الهجوم منه .

حصن الأكراد :

وخير نموذج لهذا النوع من القلاع فى سورية ، هو حصن الأكراد أو قلعة الحصن (١٢٠٥) التى تقع فى شمال شرق طرابلس . فان موقعها فوق ربوة مرتفعة جعلها تشرف على جميع الأراضى المحيطة بها . لقد كانت القلعة موجودة قبل وصول فرسان يوحنا (Saint John) فأخذوا يشيدنها من جديد ، وجعلوا فيها ساحتين كبيرتين تتخللها الأبراج المنيعة والأبواب الحصينة ، وكانت الساحة الداخلية أعلى من الساحة الخارجية ، ومشرفة عليها ، ومسيطرة على المهاجمين الذين قد ينجحون فى اقتحام السور الخارجى ، وبذلك يتهيأ للمدافعين فرصة التحكم فى العدو فيقضون عليه أو يطردونه . وكان مدخل قلعة الحصن مهيأ بطريقة حاذقة ، فإذا استطاع العدو مثلا اقتحام البوابة الرئيسية للقلعة ، فلا بد أن يأخذ طريقه عبر ممر ضيق وطويل ، ثم تقابله عدة بوابات حصينة أخرى ينبغى التغلب عليها بعناء وتضحيات ، فإذا نجح قابلته دهاليز أخرى ذات منحنيات ومرافق يتعذر التغلب عليها .

كل هذا ، قبل أن يصل المهاجمون إلى الساحة الداخلية للقلعة ، وهنا تكون قوات العدو ، قد حوصرت ، وأصبحت هدفاً محققاً وتحت رحمة المدافعين فوق الأبراج والأسوار والبوابات المسيطرة على الساحتين . ولم يكن فى هذا النوع من القلاع ، ذلك البرج المربع المنيع (keep) الذى كان يتوسط قلاع القرون السابقة والذى كان يحتمى فيه المدافعون للقتال حتى اللحظة الأخيرة ، فقد اضمحلت أهميته وأصبح لا يركن إليه . ولذلك لا نشاهده فى القلاع التى بنيت منذ عام ١٢٠٠ ، فقد أهمل إلى حد ما . ولقد أثبتت التجربة ، أن منعة القلاع قد أصبحت حينذاك فى

سلسلة الأبراج القوية التى تدعم أسوار القلعة ، وكل برج منها يقوم فيه رجاله بالقتال والدفاع ضد المهاجمين ، وكأن كل جماعة فى قلعة مستقلة .

أما النوع الثانى من القلاع ، وفيه يقوم الدفاع معتمداً على خطوط (ساحات) دفاعية منفصلة ضد الجانب الوحيد المعرض للهجوم ، كما هو الحال فى قلعة صهيون (Saone) فى سورية ، وقلعة جايار التى شيدها ريتشارد الأول ملك انجلترا على نهر السين فى عام ١٩٨١ بعد عودته من البلاد المقدسة[١] .

أثر العمارة العربية على الغرب

وليس مما يثير الدهشة أن بعد عودة الفرسان من الحملة الصليبية الثالثة انعكست كثير من التطورات المعمارية العسكرية التى انطبعت فى البلاد المقدسة على المبانى الأوروبية ، وكان المعماريون الأوربيون يبحثون عن أفضل الأساليب التى عرفت فى سورية ، كالأبواب ذات المرافق الكثيرة وكالأبراج المستديرة فى السور والحصون الوسطى التى استخدموها فى مبانيهم ، كما أنه عنى كثيراً بتأثير النيران الجانبية ، ثم عرفت السقاطات[٢] والمتاريس ، ومن ثم ساد فى أوروبا القلاع المتداخلة الحصون ، على الأقل لمدة قرن ونصف ، وذلك بعد نجاحها فى سورية على غيرها من الأساليب التى كانت قد استقرت فيها منذ أجيال سابقة .

ونلاحظ فى ضوء استيعاب الخبرة الصليبية فى أوروبا ، أن عدداً من البنائين فى سورية الذين نهضوا بتشييد قلاع طائفة الداوية ، وقلعة مونتفورت (١٢٢٧ — ٢٩م) معقل فرسان التيتون ، لم يتأثروا بطراز القلاع الدائرية الدفاع ، وواصلوا بناء القلاع على الأسلوب البيزنطى حتى نهاية أيام الصليبيين فى سورية (بالرغم من إدخالهم

---

(١) تشبه قلعة جايار فى الواقع ثلاثة حصون يكاد يكون كل حصن مستقلا عن الآخر فأقيم الحصن الأول على ربوة عاليــة ويحيط به الأسوار والأبراج ، ويفصله عن باقى القلعة خندق عميق ، ويقع خلفه حصن كبير يضم ساحتين كبيرتين يفصلهما خندق ، ويحيط بهما سور ضخم تتخلله الأبراج المنيعة ، وواحد من هــذه الأبراج منيع جداً يقوم بوظيفة الخط الدفاعى الأخير للقلعة .

(٢) تعرف فى البلاد الغربية باسم Portcullis

لبعض عوامل التقوية عليها) ، واستخدموا كذلك البرج المربع « القديم الاستعمال » . وقد نسب بعضهم ذلك الاتجاه (أى المحافظة على التقاليد القديمة) فى أسلوب بناء الحصون إلى المنافسة التى كانت تسود العلاقات بين طائفتى الداوية والاسبتارية ، والأخيرون كان لهم الفضل فى اتخاذ الطراز الدائرى الدفاع والنهوض به . ومن الصعب اليوم أن نحكم على مدى ما كانت عليه قوة كثير من القلاع الداوية لأنها تعرضت لانتقام قاس أكثر مما لقيتة قلاع الاسبتارية . ومن تلك القلاع : صفد والمريعة ، والقصر الأبيض (صافيتا) وطرطوسة ، وغيرها من القلاع الجنوبية التى تخربت .

وسنوضح العناصر (التدابير) المعمارية التى استخدمها العرب فى حصونهم قبل وصول الصليبيين إلى البلاد المقدسة ، ثم نقلها بعد ذلك إلى أوروبا . وفى طليعة هذه العناصر :

١ — المدخل ذو المرافق العديدة (لأنها على هيئة المرفق) والكلمة التى استخدمها المؤلفون العرب « عطف » . عرف المصريون القدامى هذا الأسلوب فى حصونهم . فنشاهده فى حصن شونة الزبيب فى الألف الثانية قبل الميلاد . والغرض منه أن نكبد العدو المهاجم للحصن أفدح الخسائر فى أثناء محاولته الانطلاق من باب الحصن ولا سيما فى أثناء الظلام أو عند انسحابه عقب فشل هجومه . ولم يستخدم الرومان أو البيزنطيون هذا الأسلوب فى حصونهم بل إنهم استخدموا المدخل المستقيم الذى يؤدى مباشرة إلى فناء الحصن . وفى القرن الثامن استخدم المهندس الذى أسهم فى بناء بغداد (٧٦٢ — ٧٦٥) المدخل ذى المرفق ، فكان استخداماً موفقاً . ومع ذلك فلم ينتشر هذا الأسلوب فى الشرق العربى ، حتى إذا وصلنا إلى القرن الثانى عشر تم استخدامه فى مبانى الحصون بطريقة جيدة ، ولا سيما فى قلعة حلب العظيمة (أوائل القرن ١٣) التى تمتاز مدخلها بخمسة منثنيات قائمة ومتتالية[١] .

---

(١) تراجع مادة « باب » للأستاذ كريسويل فى دائرة المعارف (الطبعة الجديدة) وفى مقاله عن الحصون فى الإسلام قبل عام ١٢٥٠ فى :

The Proceedings of the British Academy, vol. XXXVIII, London, 1952, pp. 89-107.

ويلاحظ أن أول الأبواب التى اشتملت على هـذا المرفق المثنى فى العمارة البيزنطية ، هو الباب الجنوبى فى قلعة أنـكرا (أنقرة) التى شيدها الملك ميخائيل الثالث فى عام ٨٥٩ م . ويرجح أن العباسيين نقلوا ذلك النظام المعمارى من إقليم ما وراء النهر حيث شوهد هذا الأسلوب فى قلعة جنبس التى بنيت قبل الإسلام[1] . والجدير بالذكر أن الأمير قراقوش الذى ندبه السلطان صلاح الدين الأيوبى لبناء قلعة الجبل ، أستخدم ذلك الأسلوب من المداخل فى القلعة ثلاث مرات (١١٧٦ — ١١٨٤) ، وفى قلعة الجندى بسيناء التى شيدها هذا العاهل حوالى عام ١١٨٢ . ثم انتقل الأسلوب إلى أقصى المغرب فى قصبة وداية فى رباط بمراكش[2] . كما أننا نلاحظ هذا الأسلوب الرائع فى حصن الفرسان (الأكراد) فى شمال سورية .

٢ — وهناك نظام معمارى آخر ابتـكره العرب وهو «السقاطة» التى انتقلت إلى الغرب باسم "Machicoli" وهى عبارة عن دروة من الحجارة أو الخشب ذات فتحات تبرز عن الحائط بوساطة كوابيل وتقام فوق أسوار الحصون أو فى أعلا مداخلها ، ويستطيع الجنود من خلال الفتحات إلقاء المقذوفات أو السائل الحار على الرجال الذين يقتحمون القلعة وقد ظلت السقاطة مجهولة مدة طويلة فى الغرب حتى استعارها الصليبيون فى القرن الثانى عشر . وقد استخدمت السقاطات على نطاق واسع فى شمال سورية قبل ذلك بعدة سنوات ، وأقدم نموذج منها تلك السقاطة الباقية فى دار قيطة وتاريخها منقوش عليها وهو ٥٥١ م . وتشاهد السقاطة أيضاً فى قصر الحير الغربى (٧٢٩ م) الذى شيده الخليفة هشام ابن عبد الملك فوق أبواب القصر ، وكذلك تشاهد سقاطة أخرى فى قصر الحيرة الشرقى (٧٣١) م) والجدير بالذكر أن أقدم السقاطات التى شيدت فى أوروبا هى التى نشاهدها فى قلاع جايار (١١٨٤) وشاتيلون (١١٨٦) ، ونوروتيش (١١٨٧) وونشستر (١١٩٣) . ويتضح من هذا أن الصليبيين نقلوا فـكرة السقاطة عن المعماريين العرب بعد مرور عدة أعوام طويلة .

---

(١) Field and Prostov : Ars Islamica, VI, pp. 158-166.

(٢) المرجع المذكور فى هامش ١ فى ص ٧٤ للأستاذ كريسويل ، والمعروف أن نظام الأبواب ذات المرفق انتقل إلى كثير من القلاع الأندلسية فى عصر المرابطين ولا سيما فى غرناطة وأشبيليه وأبيلا .

وبالإضافة إلى هذين النظامين العربيين ، هناك أيضاً « المتراس » Portcullis ويمكن وصفه بأنه إطار من الخشب أو الحديد ، مدبب الأطراف من أسفله ، ينزلق عمودياً فى حزين جانبيين فى كتفى باب حصن أو قلعة ، ويثبت فى الإطار شبكة معدنية صلبة ، يستطيع المدافعون قذف السهام من خلالها ، ويسدل المتراس عند محاولة العدو اقتحام القلعة وذلك بخفضه بوساطة حبال متينة أو سلاسل . ومن المحتمل أن يكون العرب قد اقتبسوه عن البيزنطيين فى أثناء حصار حصن بابليون فى مصر العتيقة[١] ثم استخدموه فيما بعد فى قصر الأخيضر ج . ع . م (٧٧٨ م) ومنذ ذلك الحين شاع استخدامه فى الشرق قبل انتقاله إلى الغرب فى أثناء الحملات الصليبية .

٤ — وهناك البربقان (Barbican) وهى كلمة عربية أو فارسية الأصل (بربخان) ، تطلق على البرج الكبير الذى يبنى على مسافة من باب الحصن أو قنطرته القامة فوق الخندق المحيط بالحصن . وقد انتقل هذا النظام المعمارى إلى أهل الأندلس ولا سيما فى عهد المرابطين بشمال أفريقيا .

٥ — والمقرنص (Squinch) نظام معمارى استخدمه العرب ونشاهده فى كثير من العمائر الإسلامية وهى ذات طبقات مصفوفة أعلا بعضها ببراعة فنية ولا يقصد بها الزخرفة بل أنها ركن مهم فى الهندسة المعمارية ولا سيما فى بناء القباب ، وهى غالباً كروية محمولة على قواعد مربعة الشكل . فى الفراغ الناشىء مادة من انتقال السطح المربع إلى مسطح دائرى . وكان كل صف من هذه الدلايات يوضع فوق بعضها وكل صف يبرز من الذى فى أسفله حتى يلتقى الصف الأعلى بصف القبة . واستخدمت القرنصات أيضاً فى المآذن أسفل دورات المؤذن وذلك لإيجاد البروز الذى يتحرك فيه المؤذن ، فهى تقوم بعمل الكوابيل التى نشاهدها فى أسفل الشرفات لحملها . والمعروف أن الفاطميين كانوا أول من استخدموا الدلايات فى مبانى القاهرة . وقد انتقل استخدام القرنصات إلى أوروبا بوساطة الصليبيين .

---

١) Joy, Sidney : Babylon of Egypt. Journal of British Archaeological Assoc., 3rd serie, vol. I, p. 70.

(٢) Creswell, K.A.C.

إعتبارات متصلة بالقلاع الصليبية :

وهنا وقد انتهينا من عرض مميزات بعض القلاع الرائعة ، وألمنا بأنظمتها ، أفلا نتساءل كيف سقطت بعض تلك الحصون الصليبية أو كيف أجبرت على الاستسلام.

الواقع أنه لا يوجد جواب واحد لذلك السؤال . إذ أن هناك عدة عوامل كانت تؤثر على سقوط القلاع الكبرى . وكان يجتمع منها عاملان أو أكثر كسبب هام لسقوط القلعة ، ويمكن بحث كل من تلك العوامل على حدة .

نقص قوة الرجال[1] :

كان النقص المزمن للقوة البشرية الصليبية دون شك العامل الرئيسي لسقوط قلاع كثيرة فى قبضة المسلمين ، ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

وجد المسلمون فى حصار قلعة صهيون المنيعة عام ١١٨٨ م أن قسما كبيراً من السور المنيع فى القلعة لا يدافع عنه أحد من رجال الحامية . وكان ذلك ما حدث فى قلعة تورون (تبنين) التى قاومت سبعة أيام فقط . وقد لاقت قلعة حصن الفرسان (الأكراد) نفس المصير ولا سيما بعد ما تخلى رجال التركمان عن مساعدة الفرسان ، فاضطر فرسان الاسبتارية وحدهم إلى الدفاع عن الحصن حتى أجبروا على التسليم .

عقلية القلاع :

أوجدت القلاع الكبرى عند الصليبيين عقلية دفاعية ، وفرضت جهداً نفسياً عليهم . وقد كان هؤلاء دواماً فى انتظار ما يجلبه المهاجمون من مفاجآت أو ما سوف يعلونه عليهم . وبعبارة أخرى كانوا فى حالة يقظة مستمرة ورقابة وانتظار وإنصات وخوف . . إلخ . فنشأ عندهم الضجر والذعر والانهيار والتبرم والملل . وتلك كلها أعداء عنيدة للجنود تعرضهم لانهيار معنوى شامل ، ولا سيما إذا تواردت الإشاعات بأخبار الهجوم ، أو أنباء الحصار . وفى بعض الأحوال كان يتسرب المسلمون من الأبواب السرية الخلفية ويفاجئون رجال القلعة ثم يفرون مسرعين بعد الانهـــاء من غارتهم ، فى حين يعمل رجال اللغم (اللغامون) تحت الأبراج

(١) يعبر عنها بعبارة Lack of manpower

الكبرى والأسوار دون كلل أو ملل ، ويدمرون قسما هاماً من القلعة ويسهلون على المهاجمين التسرب أو المباغتة . فما بالك إذا انضبت المياه داخل القلعة وتفشت الأمراض . وبينما هم فى محيط تلك الكوارث والمتاعب تصل الأنباء إلى حامية القلعة بأن العدو قد أباد نجدة كانت آتية لخلاصهم .. وهكذا كانت معنويات الحامية تتضاءل .. وتتفشى بين أفرادها الدعوة إلى التسليم . وتفسر لنا أمثال تلك المواقف لماذا سلمت أنطاكية المنيعة عام ١٢٦٨ أم بعد حصار لم يدم أكثر من خمسة أيام .

المجاعـة :

كان أهم عناصر حروب الحصار حرمان رجال الحصن من المؤونة والطعام والماء ، ولـكن هذا السلاح لم يتأثر به الصليبيون . ذلك لأن رجال الحصن لم يكن عددهم ضخماً يحتاج إلى مقادير كبيرة من الميرة . ومع ذلك فقد احتوت القلاع الـكبيرة على مخازن تحت الأرض تحتوى على مقادير وفيرة من الحاجيات الضرورية . فكانت فى قلعة المرقب مثلا من المؤنة التى تـكفى رجاله للمقاومة خمس سنوات من الحصار المرير ، وكان فى حصن الفرسان (الأكراد) طاحون للقمح وكانت مخازن الزيت والحبوب كبيرة . . وتلك لا زالت إلى اليوم موضع دهشة الباحثين . وكانت فى صهاريج ومخازن قلعة صهيون ما يكفى حامية كبيرة مدة حصار طويلة .

وفى بعض الأحيان كان يبدو شبح المجاعة مخيفاً مزعجاً . وتتحدث المراجع التاريخية عن دفاع « رينودى ساجيت » وحاميته البـــاسلة عن قلعة الشقيف (Beaufort) ، وانتهاء هذا الاستبسال بالتسليم لصلاح الدين (١١٨٨/٨٩) بعد ما تحمله رجالها من الحرمان ، وقد مر هذا الخطر بحامية قلعة بلفوار (بيت جبرين) التى قاومت الحصار ١٨ شهراً . كما فتكت المجاعة برجال كرك مؤاب بعد معركة حطين — وحامية حصن مونتريال ، وقلعة صافيتا (١١٨٨ م) .

د. عبد الرحمن زكي

ملحق

ثبت بالقلاع الإسلامية والصليبية

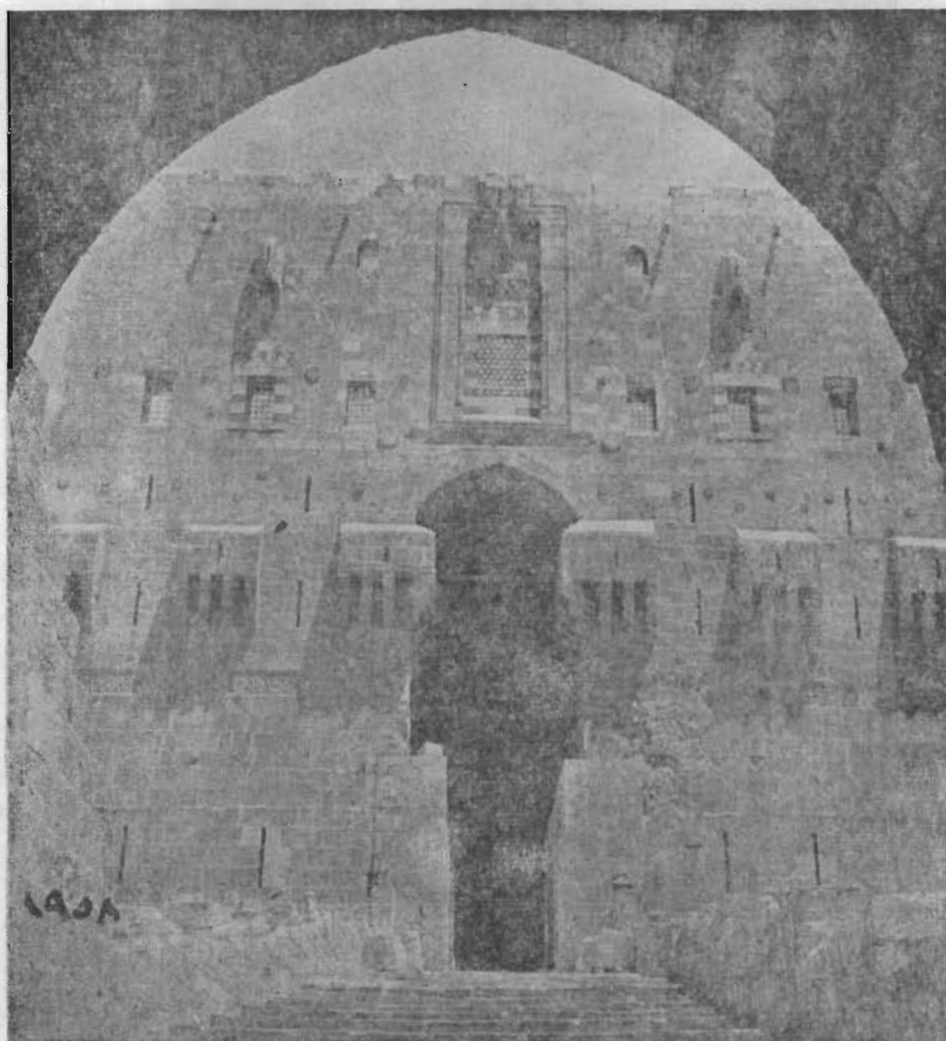
فى الشرق الأوسط العربى

حصن بابليون بمصر	حوالى ١٠٠ م
حصن الأزرق	نهاية القرن الثالث
قلعة أنطاكيا (بدأ تشييدها أنتيجونوس وسلوكوس)	٥٢٧—٥٦٥ م
قصير الحلابات (بدأ تشييده كرا كلا ٢١٣ م)	٥٢٩
حلبية (زنوبيا على نهر الفرات)	القرن السادس
ساموساتا (قلعة الطين على الفرات)	» »
مرعش (أعاد الخليفة معاوية بناءه)	القرن السابع
الحدث (أعاد الخليفة المهدى بناءه) وسماه المحمدية	» »
جبلة (على البحر المتوسط بالقرب من اللاذقية)	» »
المصيصة (بدأ تشييد القلعة عبد الملك بن مروان)	٧٠٢—٧٠٣
المثقب (شيده الخليفة عمر بن عبد العزيز)	٧٢٤
قصر الحير (شيده هشام بن عبد الملك)	٧٢٨—٧٢٩
قلعة الرصافة (شيدها هشام بن عبد الملك)	٧٢٨—٧٢٩
ملطية (أعاد تشييدها الخليفة المنصور)	٧٥٦
منصور (شيدها المنصور بن جعوانة بن الحارث)	٧٥٧
زبطرة (بالقرب من قلعة منصور أعاد بناءها الخليفة المنصور)	٧٨٠
أدنة (شيدها هارون الرشيد)	٧٨٢
طرسوس	٧٨٧ — ٧٨٨
عين زربة (‘Anazarbus)	٧٩٦
الهارونية (شيدها هارون الرشيد)	٧٩٩—٨٠٠
برزية	القرن التاسع

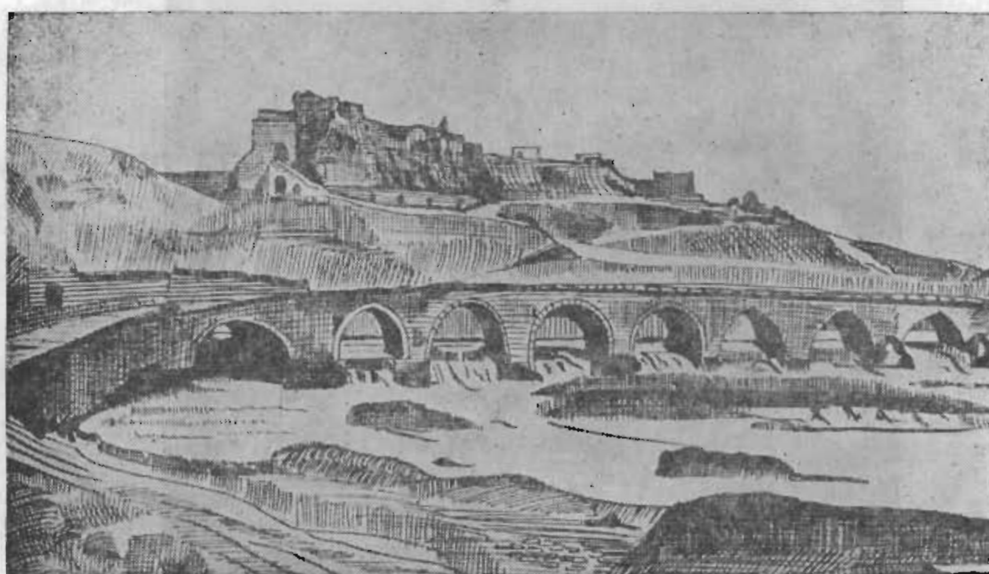
جعبر (دوسرة)	قبل القرن العاشر
حران	قبل القرن العاشر
حلب	القرن العاشر
العـــريمة	القرن العاشر
مصيف (قادموس بالقرب منها)	القرن العاشر
عكا	القرن العاشر
حمص	القرن العاشر
يهمر (القلعة الحمراء)	القرن العاشر
حارم	٩٥٩
بغراس (Pagrae)	٩٦٣—٩٦٨
عكار	حوالى ١٠٠٠
شيزر	حوالى ١٠٠٠
المهلبـة	القرن الحادى عشر
الـكهف (شمال بانياس)	القرن الحادى عشر
قادموس (١١٣٤ ؟)	القرن الحادى عشر
دمشق (الأمير أتسز) أو خلفه	١٠٤٥ أو ١٠٦٧
المرقب (مرجط) — بدأ تشييدها رشيد الدين الإسماعيلى	١٠٦٢
المضيق (أباميا)	حوالى ١١٠٠
بانياس (حبيبة أو نمرود)	حوالى ١١٠٠
صافيتـا	١١٠٢
طرابلس (سان جيل)	ح ١١٠٣
جبلة (جبيل)	١١٠٤
تورون (تيرون)	١١٠٣ أو ١١٠٧
حبيس جلدك (شرق الأردن)	١١١٠
حصن الأكراد (الفرسان) على أسس سابقة	١١١٠—١١٤٠
الشوبك (كراك مونتريال) شرق نهر الأردن	١١١٥

فرعون (الجرايه) بخليج العقبة	ح ١١١٦
سكاندليون	١١١٦
صهيون (صلاح الدين)	١١١٩ — ١١٢٠
إبلين (يبنا)	١١٣١ — ١١٤٤
بيت جبلين	١١٣١ — ١١٤٤
جارد بلانش (تل الصافى)	١١٣٧ — ١١٤٢
بلفورت (شاستل أرنول) أو شقيف أرنول	١١٣٩ - ١١٤٠
صفد	١١٤٠
بلفوار (كوكب الهواء)	١١٤٠
كرك مؤاب (شرق نهر الأردن)	١٩٤٢ — ١١٤٣
غزة (على البحر المتوسط)	١١٤٩ — ١١٥٢
عرعة	١١٤٩
عسقلان (على البحر المتوسط)	١١٥٣
قلعة الجبل بالقاهرة (صلاح الدين)	١١٧٦ — ١٢٠٧
شاستلية (ن . الأردن الأعلى)	١١٧٨
طرطوسة	ح ١١٨٣
عجلون (الربض شرق نهر الأردن)	١١٨٤
صدر (صلاح الدين بسيناء)	١١٨٧
داروم (دير البلح) — الملك بلدوين الأول	القرن ١٢
إنفة (نفين)	القرن ١٢
بصرى (سورية)	١٢٠٢ — ١٢٠٣
قلعة النجم	١٢٠٨ — ١٢١٥
قلعة صور (على البحر المتوسط)	١٢١٠
قلعة جبل طابور (الملك العادل)	١٢١١
عثليت (الحاج فى شمال فلسطين)	١٢١٧ — ١٢١٨
قيصارية	حوالى ١٢١٨
جدين (مونفرتس — ستاركنبرج)	١٢٢٧ — ١٢٢٩

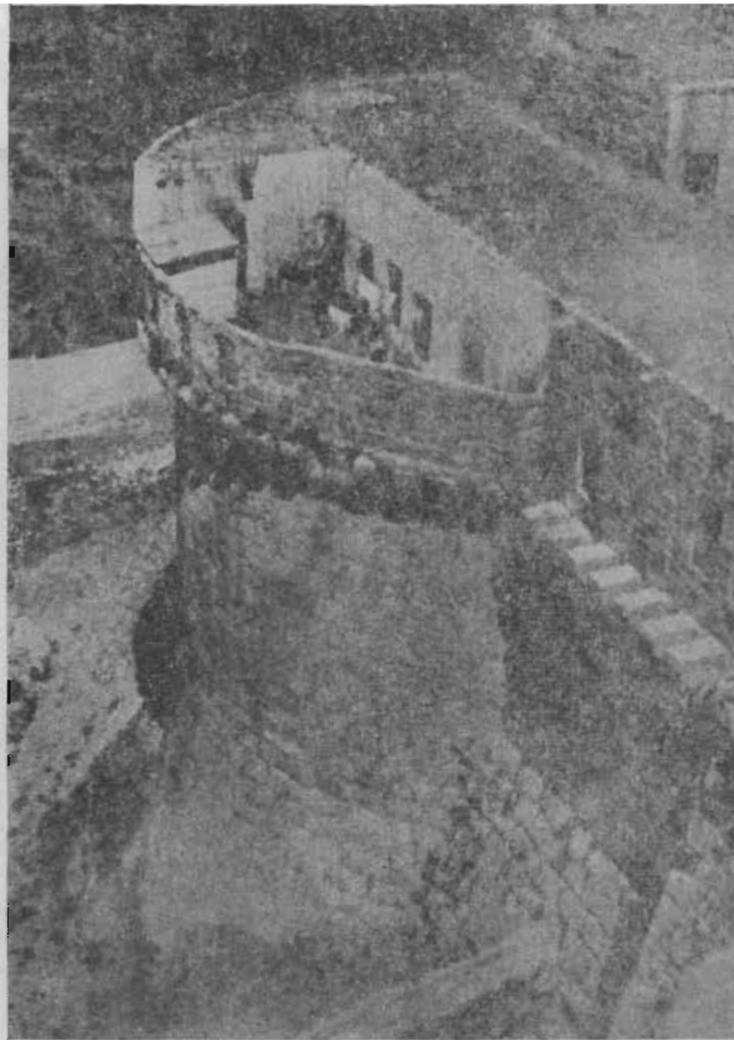
صيداء (ساجيت)	١٢٢٧—١٢٢٨
جزيرة الروضة بالقاهرة	١٢٤٠
قلعة بيت المقدس	القرن ١٣
قلعة قايتباى بالإسكندرية	١٤٧٧
قلعة قايتباى برشيد	١٤٧٩
العقبة (السلطان الغورى)	١٥١٦
نخل (السلطان الغورى بسيناء)	١٥١٦
العريش	١٥٦٠
الطور	ح ١٥٦٠



مدخل قلعة حلب العربية بسورية



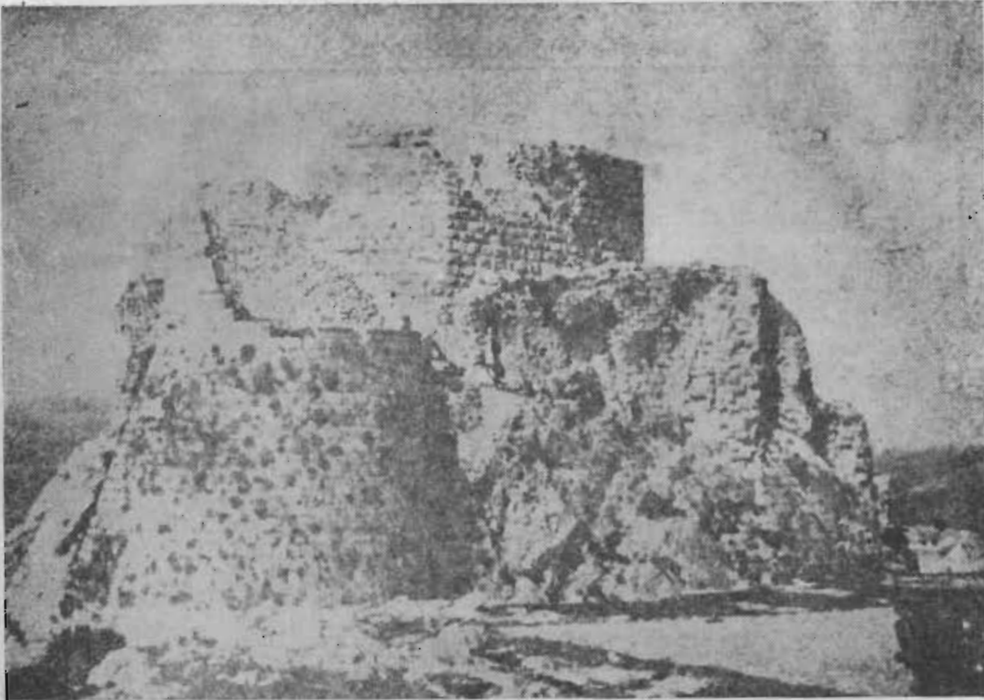
قلعة شيزر العربية المطلة على نهر العاصي بسورية



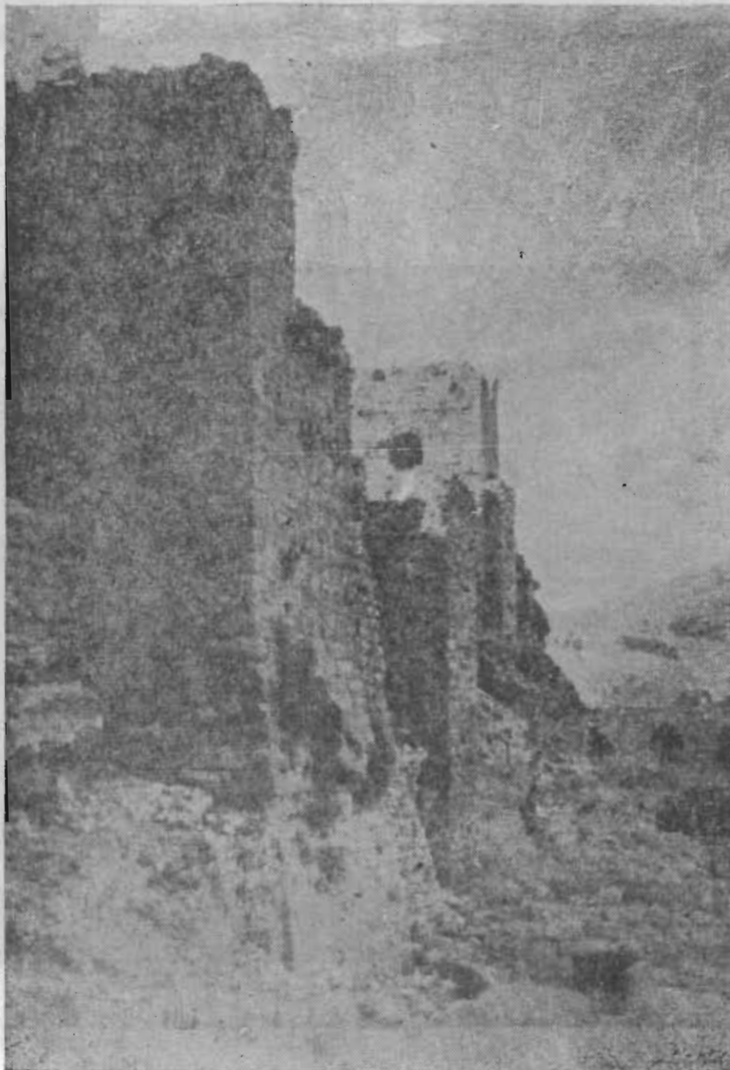
قلعة حصن الأكراد : برج مطل على السهل بسورية



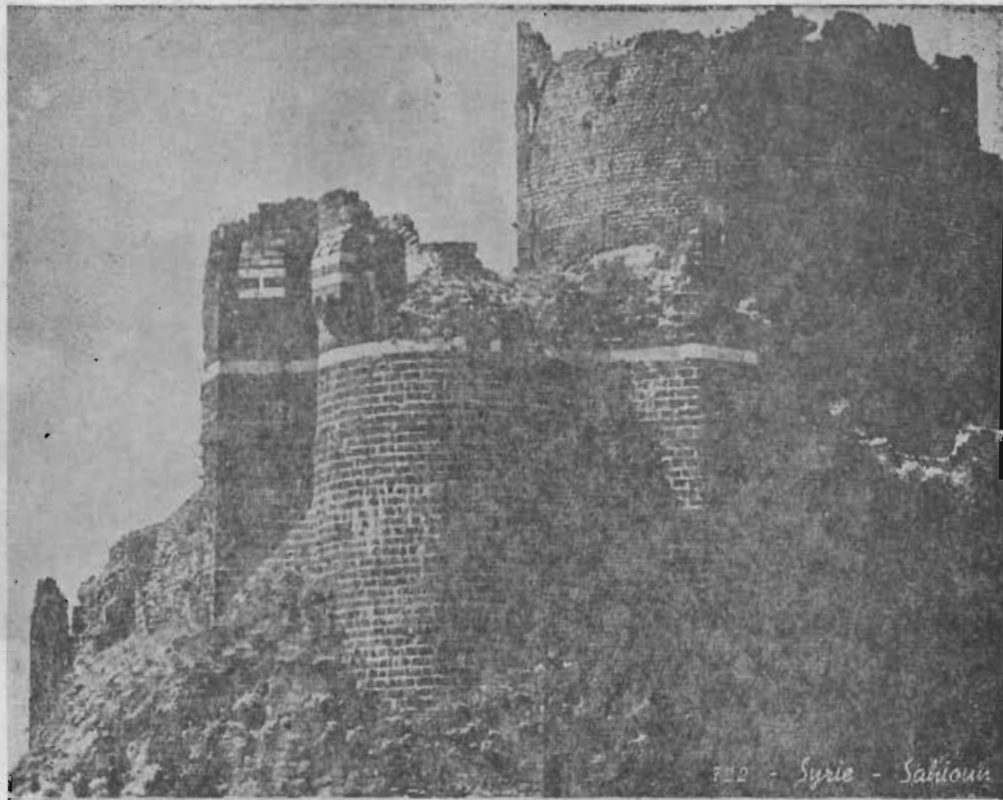
قلعة الشقيف شقيف (أرنول) بلبنان



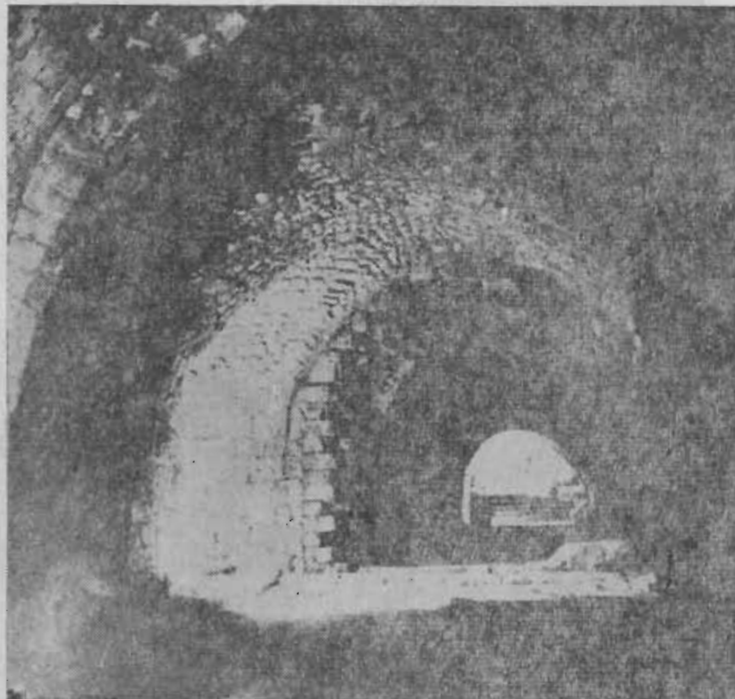
قلعة الشقيف بلبنان



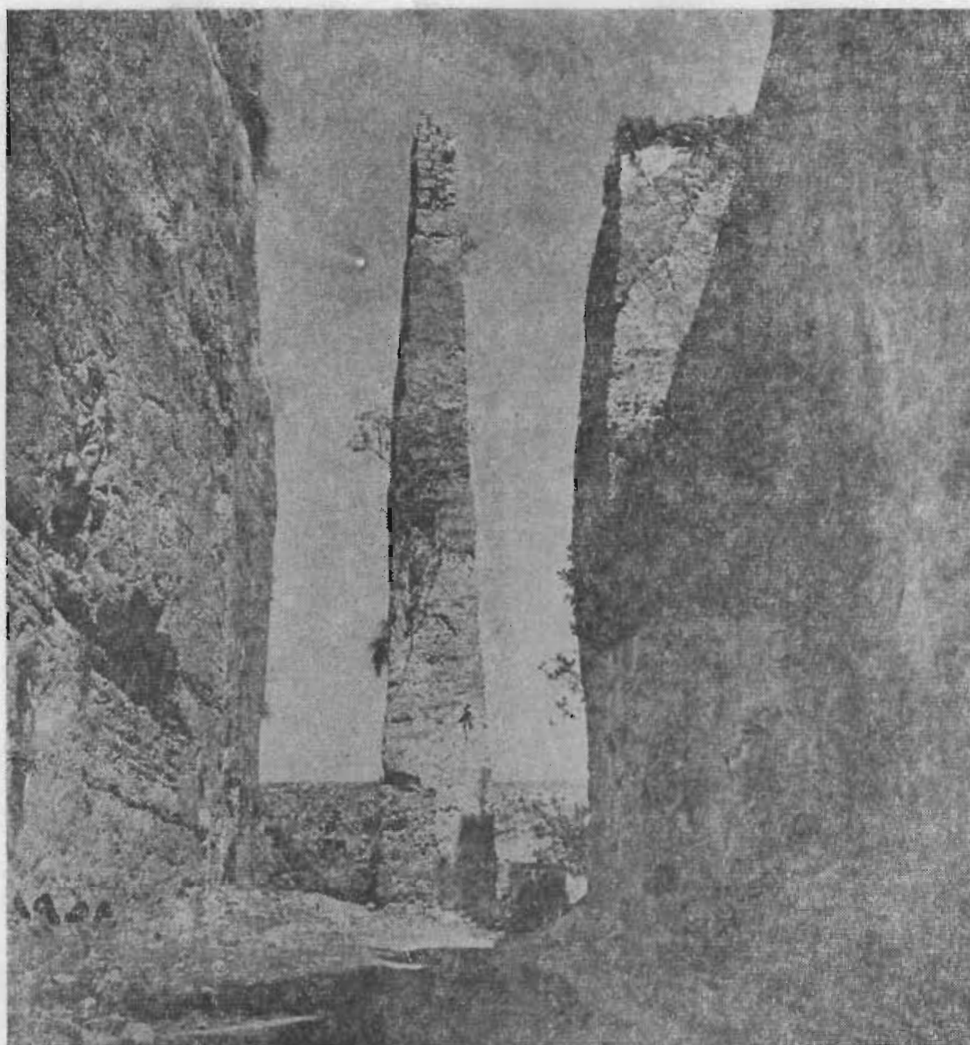
قلعة الكرك بشرق الأردن



قلعة صهيون (صلاح الدين) في سورية



قلعة جبيل : أقبية الحصن بلبنان



قلعة صهيون (صلاح الدين) فى سورية